هكذا كانوا... يوم كنا...

«الطب في أوروبا.. وعند المسلمين»

الدكتور
حسان شمسي باشا
استشاري أمراض القلب في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة - بجدة

دار المنارة
للنشر والتوزيع

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

هكذا كانوا ...
يوم كنا ...

«الطب في أوروبا وعند المسلمين»

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

٧٣٢
ن٤
١/٤-٢٦/ ٤
٨/٢٩

هكذا كانوا ... يوم كنا ...

«الطب في أوروبا .. وعند المسلمين»

الدكتور
حسان شمسي باشا
استشاري أمراض القلب في مستشفى الملك فهد
للقوات المسلحة - بجدة

زميل الكلية الملكية للأطباء في لندن
زميل الكلية الملكية للأطباء في غلاسجو
زميل الكلية الملكية للأطباء في إيرلندا
زميل الكلية الأمريكية لأطباء القلب

دار المنارة
للنشر والتوزيع

285906
٥٦ ٤٨١٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠ ـ هاتف الإدارة: ٦٦٠٣٦٥٢
هاتف وفاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ ـ هاتف المعرض: ٦٦٧٥٨٦٤

الإهداء

إلى الذين بهرت أعينَهم حضارةُ الغرب...
وأظلمت مآقيهم من واقع المسلمين.
إليهم أهدي «هكذا كانوا يوم كنّا»
عسى أن نعود كما كنّا...
إذا آمنّا.. ثم استقمنا...

«حسان»

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

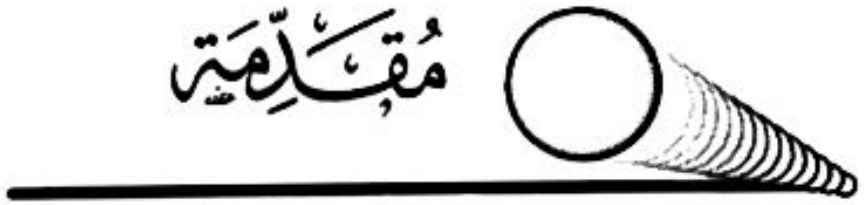

إن الأمم إنما تفكر بماضيها وتعمل لمستقبلها. ويستحيل على أمة من الأمم مهما أوتيت من قوة أن تعيش لمستقبلها وتحتفظ بمنزلتها بين الأمم ما لم تستمد تفكيرها من الماضي. فالماضي هو القوة الدافعة التي تمكّن الشعوب من أن ترسم مستقبلها وتشيد حضارتها على أسس ثابتة. والأمم التي تعرف ماهية ماضيها، وتستطيع أن تستخلص منه أسباب رقيها وأسباب انحلالها تستطيع أن تنهض من جديد.

فالماضي هو إذن مرشد الأمم وسراجها المنير الذي تهتدي به إذا ما أرادت أن تستعيد مجدها الذي فقدته، والشجرة التي ليس لها جذور لا يكون لها ثمار أو بذور.

وقد فتح العرب تحت راية الإسلام نصف العالم في مدة قرن واحد، ثم كان أعظم همهم أن يضمُّوا إلى عظمة الفتح العلم، فلم يكمل القرن التاسع الميلادي حتى كان المسلمون ـ كما يقول لو كليرك ـ قد ملكوا جميع علم اليونانيين، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا. وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في أسبانيا مركزاً لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية.

يقول البروفسور «جاك ريسلر» الأستاذ في معهد باريس للدراسات الإسلامية:

«لقد احتل العرب والمسلمون المكانة الأولى في الطب، وظلوا على

رأس العلم الطبي في العالم على مدى أكثر من خمسمئة عام»[1].

ويقول المستشرق نيكلسون في كتابه «تاريخ العرب الأدبي»:

«ما المكتشفات اليوم لتحسب شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلاً وضياءً في القرون الوسطى المظلمة ولا سيما في أوروبا».

أما جورج سارتون فيقول في كتابه «تاريخ العلم»:

«المسلمون عباقرة الشرق، في القرون الوسطى، لهم مآثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم المؤلفات والدراسات قيمة، وأكثرها أصالة وعمقاً، مستخدمين في ذلك لغتهم العربية، التي كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشري، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادي، حتى نهاية القرن الحادي عشر، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذي كان يريد الإلمام بثقافة عصره، وبأحدث ما يجري من علوم، أن يتعلم اللغة العربية»[2].

ويقول الأستاذ «كويلوبونج» أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية فيها في محاضرة ألقاها في جامعة برنستون:

«وبعد، فهذا عرض تاريخي قُصد به التذكير بالدَّين الثقافي، الذي ندين به للإسلام، منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه الألف سنة - نسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلّمين المسلمين، ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية»[3].

ويشهد بذلك الدكتور «غريسيب» مدير جامعة برلين، ورئيس قسم

---

(١) «الحضارة العربية» د. جاك ريسلر، ص ١٩٥.

(٢) «تاريخ العلم» لـ جورج سارتون.

(٣) «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» ص٢٥٧، وهي مجموعة محاضرات أُلقيت في مؤتمر الثقافة الإسلامي في واشنطن عام ١٩٥٣.

الطب فيها حيث قال في حفل أقامه الطلاب المسلمون في ألمانيا:

«أيها الطلاب المسلمون، والآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوروبيون يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم، وشرح لمعارفهم ونظرياتهم، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر، **طالما أن كتابكم المقدس عنوان نهضتكم، ما زال موجوداً بينكم، وتعاليمَ نبيّكم محفوظة عندكم. فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل، ففي قرآنكم علم وثقافة، ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا أن كنا في الماضي طلابكم»**[1].

ويقول بنجامين جوردان في مقال نشر في مجلة مجمع الطب في ولاية Michigin بعنوان «الطب العربي»:

«إنني لم أدهش أبداً بما قدّمه علماء العرب في حقل المعرفة، وخاصة الطب، لأن القرآن بالحقيقة يحتوي على الكثير من المعلومات الطبية، والإسلام يحث على طلب العلم».

وللأستاذ المستشرق «ليبري» مقولة شهيرة يقول فيها:

«لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون».

ويؤكد المستشرقون أن المسلمين لم يعطوا العالم الطب فحسب، بل وسّعوا المفاهيم الإنسانية في العالم. يقول «رام لاندو» في كتابه «الإسلام والعرب»:

«ولم يوسّع المسلمون في دراستهم وبحوثهم الطبية آفاق الطب فحسب، بل وسّعوا المفاهيم الإنسانية على وجه العموم. وإذا كان من واجبنا أن نعتبر اكتشاف الذرّة وصنع القنبلة الذرية رمزاً لأروع المنجزات العلمية في منتصف القرن العشرين، فلن يبدو من مجرد المسافة أيضاً، أن

---

(١) «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية» ص١٤٣.

تكون جهود المسلمين الطبية المبكرة قد قادتهم إلى اكتشاف لا يقل عن هذا الكشف الذري ثورية، وأن يكون في أغلب الظن أكثر منه نفعاً».

ويؤكد ذلك قول «ياقو قالدستون» في مقال له بعنوان «مكتشف الطب في بلاد العرب» ونشرت في مجلة مجمع الطب في نيويورك:

«ومما لا يقبل الجدل أن المعلومات التي وصلت إلينا من أطباء العرب، هي في الحقيقة الحجر الأساسي للطب الحديث، ولولا هذه الإسهامات العظيمة لما وصل الطب الحديث إلى المستوى الذي وصل إليه»[1].

ويقول البروفسور مونتجومري وات أستاذ الدراسات الإسلامية في College de France في كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية»:

«ويبدو أن الكثيرين من الباحثين الأوروبيين يطرقون الموضوع مع بعض التحيز ضد العرب. بل إنه حتى أولئك الذين يمتدحونهم، إنما يفعلون ذلك وكأنما يضنُّون عليهم بالثناء. فالبارون كارادوفو الذي كتب الفصل الخاص بالفلك والرياضة من كتاب «تراث الإسلام» اضطر إلى الابتداء بتحقير شأن العرب فكتب يقول: «لا ينبغي أن نتوقع أن نجد لدى العرب تلك العبقرية الخارقة، وتلك الموهبة المتمثلة في المخيلة العلمية، وذلك «الحماس»، وذلك الابتكار في الفكر، مما نعرفه عند الإغريق ـ فالعرب قبل كل شيء إنما كانوا تلاميذ للإغريق، وما علومهم إلا استمرار لعلوم اليونان التي حافظوا عليها، ورعوها، وفي بعض الحالات طوّروها وحسّنوها».

غير أنه يمضي بعد ذلك فيشرح هذه النقطة الأخيرة ويعترف: «بأن العرب قد حققوا بالفعل إنجازات رائعة في ميدان العلوم. فقد علّمونا استخدام الأرقام (العربية) رغم أنهم لم يبتكروها، وبهذا باتوا مؤسسي الحساب المستخدَم في الحياة اليومية. وقد جعلوا من الجبر علماً دقيقاً، وطوّروه تطويراً عظيماً، كما وضعوا أسس الهندسة التحليلية. وقد كانوا، بدون أدنى شك، مؤسسي علم المثلثات الذي لم يكن معروفاً لدى

---

(١) عن كتاب «أعلام العرب والمسلمين في الطب» ص٣٦.

الإغريق. أما في مجال الفلك فكان لهم عدد من الملاحظات القيّمة»[1].

ويخلص البروفسور «مونتجومري وات» إلى القول:

«إننا معشر الأوروبيين نأبى في عناد أن نقرّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحياناً إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحياناً تجاهلاً تاماً. والواجب علينا أن نعترف اعترافاً كاملاً بهذا الفضل. أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدلُّ إلا على كبرياء زائف»[2].

ويتحدث البروفسور «مونتجومري وات» عما حدث إبان الحروب الصليبية فيقول:

«وكان تشويه الأوروبيين لصورة الإسلام ضرورياً لتعويضهم عن إحساسهم بالنقص. فالتكنولوجيا الإسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوروبية في كثير من الميادين. فقد حاول الباحثون المسيحيون في ذلك الوقت إقناع المسيحيين الآخرين بأنهم في حربهم ضد المسلمين إنما يحاربون من أجل نصرة النور على قوى الظلام. وأنه حتى وإن كان المسلمون أقوياء، فإن دينهم خير من الإسلام!».

ويستطرد البروفسور مونتجومري وات فيقول:

«فليتحدثوا إذن عن النور والظلمة، غير أننا في عالم اليوم، نعلم جيداً أن الظلمة التي ينسبها المرء إلى أعدائه ما هي إلا إسقاط للظلمة الكامنة فيه هو، والتي لا يريد الاعتراف بها. وعلى ذلك فإنه ينبغي علينا أن ننظر إلى الصورة المشوهة للإسلام باعتبارها إسقاطاً لما اكتنف عقول الأوروبيين من جهالة. فأما العنف والإفراط في إشباع الشهوات اللذان اتُّهم بهما المسلمون، فكانا شائعين في أوروبا رغم المُثل المسيحية العليا».

ويختم كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» بالقول:

---

(١) «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» تأليف مونتجومري وات، وترجمة حسين أحمد أمين، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٢) المرجع السابق ص٨.

«ومتى ألمَّ المرء بكافة جوانب مواجهة المسيحية للإسلام في العصور الوسطى، وضح له أن تأثير الإسلام في العالم المسيحي الغربي هو أضخم مما يُظنُّ عادة. فلم يقتصر دور الإسلام على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من منتجاته المادية، واكتشافاته التكنولوجية، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم الفلسفية، بل إنه دفع أوروبا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها. وقد أدت مواجهة الأوروبيين العدائية للإسلام إلى تهوينهم من شأن أثر المسلمين في حضارتهم، ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني عليهم. ومن ثمَّ فإن من أهم واجباتنا معشر الأوروبيين الغربيين، والعالم في سبيله لأن يصبح عالماً واحداً، أن نصحح هذه المفاهيم الخاطئة، وأن نعترف اعترافاً كاملاً بالدَّيْن الذي ندين به للعالم العربي والإسلامي»[1].

ولقد اندثرت حضارات، وبادت معالمها، وغدت لغتهم أغرب من أن يتكلمها حتى المنتمون إليها ـ كما يقول أخي وصديقي الدكتور محمد ظافر الوفائي ـ ومع ذلك لا يزالون يعتزون ويفتخرون بما يسمونه حضارتهم، مع أنهم لم يقدموا للإنسانية إلا المآسي التي تعقبها المآسي.

أفلا يحق لنا، نحن العرب والمسلمون أن نفخر بتراثنا الطبي؟ ألا يحق لنا أن نفخر بالتراث الذي حفظ الحضارات التي سبقته، وأبدع وأضاف عليها؟! أفلا يحق لنا أن نفخر بهذا التراث الذي كان قاعدة الإطلاق لنهضة أوروبا؟

وقد قصدت من هذا الكتاب أن أشحذ الهمم إلى بناء مجد أمتنا من جديد. فإذا كنا كما كنا، فبإمكاننا أن نعود كما كنا إذا التزمنا بما التزم به آباؤنا وأجدادنا، وعدنا إلى ديننا، وأخلصنا في عملنا. فإن كنتُ قد وُفِّقت فللّه الحمد والمنّة، وإن قصَّرت فمن نفسي، وختاماً أتقدم بجزيل شكري وامتناني لأخي وصديقي الدكتور محمد علي البار على مراجعته للكتاب وتعليقاته القيمة، فجزاه الله عني خير الجزاء، والله من وراء القصد.

د. حسان شمسي باشا

١٤/١١/١٩٩٨م

---

(١) «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» مونتجومري وات، ص١١٣.

الفَصلُ الأوّل

الطب في أوروبا

كان الطب في أوروبا في العصور الوسطى في غاية التخلف، يقول البروفسور «متجومري وات» في كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية»:

«يبدو أن ممارسة الطب في أوروبا، قبل أن يتأثر أطباؤها بالطب العربي كانت فجّة إلى حد بعيد. وقد ترك لنا كاتب عربي من عصر الحروب الصليبية، هو الأمير أسامة بن منقذ (١٠٩٥ ـ ١١٨٨م)، وصفاً شهيراً لفجاجة العلاج الأوروبي. فقد أرسل عمُه الأميرُ المسلم طبيباً إلى أحد الفرنج المجاورين له بناء على طلب الأخير. وعندما عاد الطبيب بعد فترة قصيرة للغاية، روى قصة عجيبة. فقد كان عليه أن يعالج فارساً وامرأة؛ فأما الفارس فكان يعاني من خرّاج في ساقه، فوضع الطبيب كمّادة على الخرّاج حتى ينضج، حتى إذا ما انفجر الخرّاج، بدأ يفرغ صديده على نحوٍ مُرْضٍ. وأما المرأة فكانت تعاني ما يسمى بالجفاف، فأمرها الطبيب بالحمية، واتباع نظام صارم في التغذية مع أكل كميات كبيرة من الخضروات الطازجة.

فما فرغ الطبيب العربي من مهمته حتى وصل طبيب إفرنجي (آتٍ من أوروبا). سأل الفارس عما إذا كان يفضّل الحياة بساقٍ واحدة، أو الموت مع الاحتفاظ بالساقين.

وإذ أجاب الفارس بالرد المتوقع، أمره الطبيب الإفرنجي بأن يمدّ ساقه على لوح من خشب. ثم شرع رجل قوي البنية يحاول استئصال الجزء

المصاب من الساق بفأس حادة. وقد فشلت الضربة الأولى في قطع الساق. وتسببت الضربة الثانية في تدفق النخاع، ومات الفارس من فوره.

أما علاج المرأة فكان أبشع، فقد أعلن الطبيب الإفرنجي أن شيطاناً قد ركبها مما يستلزم حلق شعر رأسها. فلما حلقوه أمرها بالعودة إلى أكل الثوم والخردل، فإذا بالجفاف يزداد، وهو ما فسّره الطبيب الإفرنجي بدخول الشيطان إلى رأسها، وعندئذ أحدثَ فيه جُرحاً في شكل الصليب، وأزال جلد الرأس عن موقعه حتى ظهرت الجمجمة، ثم دلكها بالملح، وكان أن ماتت المرأة على الفور، وعندئذ سأل الطبيب العربي القومَ المجتمعين هناك عما إذا كانوا لا يزالون في حاجة إلى خدماته، فلما أجابوه بالنفي، عاد إلى بلده»[1].

وتروي الدكتورة «زيغرد هونكه» قصة الأمير «ديدو الثاني» الذي كان يشكو من ضيق النفَس والبدانة، فاستشار طبيباً في قصره، فتناول الطبيب موسى حادة شقَّ بها بطن الأمير الصغير المسكين ببساطة، فنزع الشحم الزائد عنه، وانتزع روحه معه كذلك!!. أجل لقد كان ما حدث طريقة أساسية «جذرية» في المعالجة عند الأوروبيين[2].

ثم تعلق الدكتورة هونكه على ذلك فتقول:

«ثم أين هو البلد الذي عُرف فيه الطب بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطب العربي؟ وأين هي الدولة التي عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الأخصائيين بشتى حقول الصحة وتركيب الأدوية والعقاقير كما كانت الحال عند العرب؟

وهل كان للمستشفيات الحديثة في الأصقاع العربية آنذاك مثيل في أي طرف من أطراف الأرض؟ إن وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن

---

(١) «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» للبروفسور مونتجومري وات، ص٩٠، وكتاب «الاعتبار» لابن منقذ، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» للدكتورة زيغرد هونكه ص٢١٧.

عظمة أبحاثهم، كما أن علم الصحة عندهم لأروع مثل يضرب. ولِمَ العجب والدهشة، والوضع كان كما نعلم؟ ألم يطلب الفرنجة مساعدة العرب الطبية ويلحُّوا في التماسها؟».

ثم تروي أيضاً قصة «فليلهم فون بورن» والذي كان من الصليبيين الذين أتوا إلى بيت المقدس. يقول:

«كان عندنا في بلادنا ـ أي في بلد في أوروبا ـ فارسٌ كبير القَدْر، فمرض وأشرف على الموت. فجئنا إلى قسٍّ كبير من قسوسنا وقلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم. ومشى معنا ونحن واثقون أنه إذا حطَّ يده عليه عوفي. فلما رآه قال: أعطوني شمعاً. فأحضرنا له قليلاً من الشمع، فليَّنه وعمله مثل عُقَد الإصبع. ووضع كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. فقلنا له: قد مات!!. قال: نعم، كان يتعذب، فسددت أنفه حتى يموت ويستريح»!!

وتعلق الدكتورة هونكه على ذلك فتقول: «أيدٍ توضع، وشيطان يُطرَد، وصلاة تُقام.. تلك كانت الوسائل المفضَّلة في المعالجة التي حاول بها أطباء أوروبا ـ، عن طريق مسوح الكهنوت والرهبان ـ إنقاذ الإنسانية المريضة وتخليصها من براثن الداء والألم. لقد اعتُبر التعاطي بعقاقير غير عقاقير الكنيسة وممارسة مهنة الطب وإجراء العمليات الجراحية عملاً دون مركز الكنيسة، ودون جلال الروح وقدسيتها. «إنه لمشينٌ حقاً أن يعمل الطبيب بيديه»، ولقد ظل هذا القول معمولاً به مدى أجيال عديدة طويلة حتى لدى الأطباء المتعلمين في أوروبا، فكان من الأمور المعيبة والحقيرة أن يمارس عميد الطب عمله بيديه، حتى إن جسَّ النبض اعتبر أمراً دنيئاً مهيناً. وباختصار، فإن الكنيسة قد حرَّمت على رجالها تعاطي الجراحة معاطاةً قطعية، وتركت للـ«متحضرين» المتمرنين، ذوي الخبرة البدائية، مهنة الجراحة ومعالجة الجراح المدماة».

«وقد حرَّم الواعظ الصليبي الكبير برنارد كلارفو (١٠٩٠ ـ ١١٥٣م) على رهبانه، الذين كثيراً ما داهمهم المرض لرداءة الطقس وتغيير المناخ،

تناولَ العقاقير، أو الاتصال بالأطباء لأنه كان يأبى لخلاص أرواحهم أن تعبث به عقاقير أرضية فتهدده.

وحقيقة الأمر، أن هذه المعتقدات لم تكن قطّ بضاعة بعض الغلاة المتعصبين، بل كانت متأصلة في الوعي الديني آنذاك، ومشفوعة بقرارات كَنَسيّة، لذلك وجب على المرضى، وحتى الذين تنتابهم الحمى، دون رحمة أو شفقة، أن يمتنعوا عن تناول العقاقير الطبية قبل قبول سرّ الاعتراف.

وقد جعل البابا أنوشنسيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) ـ الذي دعا إلى الحملة الصليبية الرابعة ـ ذلك واجباً محتماً على كل فرد، مهدداً بذلك الطبيب بحرمانه من الكنيسة إن هو عالج مريضاً ما، لم يعترف من قبل.

وإذا حدث أن رفض المريض أن يتقدم من سرّ الاعتراف، ورفض بالتالي الطبيب المسيحي أن يعالجه عملاً بتعاليم الكنيسة، وذهب المريض إلى طبيب آخر عربي أو يهودي، فإن الكنيسة لم تكن لتقف مكتوفة الأيدي إزاء هذا الأمر، بل كانت تسرع فتنزل عليه الحرم الكنسي، لأن في معالجته هذه تهديداً سافراً لخلاص روحه[1]!!

ولم يكن بمقدور المسلمين في شرقي القدس ودمشق أن يعرفوا ما كان يجري من الأمور الغريبة في المستشفى الذي أسسه فارس من فرسان القديس يوحنا في مدينة القدس:

«لقد كان الرجال المشخنون بالجروح المدمّاة يضطرون إلى الانتظار طويلاً، استعداداً للتقرب من سرّ الاعتراف، وللإقرار بخطاياهم وذنوبهم جميعاً، وتناول الخبز الذي يسمونه «خبز الرب» قبل أن ينالوا إسعافاً أولياً ما، أو يكتنفهم مأوى أو ملجأ».

أجل هكذا كان الفرنجة. لم يكن بوسع الشرقي أن يتفهم ذلك، كيف لا، وقد قال ابن رضوان، عميد أطباء القاهرة في أواسط القرن الحادي عشر، محدداً واجبات الطبيب بما يلي:

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢١٨ ـ ٢٢٤.

«من واجب الطبيب أن يعالج أعداءه بالروح نفسه، والإخلاص ذاته، والاستعداد عينه الذي يعالج به من أحبّهم»[1].

المستشفيات في أوروبا:

قبل أن نتحدث عن نموذج من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، يوم كانت أوروبا تتيه في ظلام الجهل ولا تعرف شيئاً من هذه المستشفيات، لا بدَّ من وقفة عند حال المستشفيات في أوروبا. يقول المستشرق الألماني «ماكس مايرهوف»:

«إن المستشفيات العربية ونُظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقي علينا الآن درساً قاسياً مرّاً لا نقدّره حق قدره، إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في ذلك الزمن نفسه. فقد مرَّ أكثر من ثلاثة قرون على أوروبا، قبل أن تعرف للمستشفيات معنى، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م)، وكثير من المرضى كانوا يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة. وكانت المستشفيات الأوروبية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين»[2].

وتقول الدكتورة «زيغرد هونكه»:

«وما كانت المستشفيات المخصصة للمرضى دون غيرهم من الناس (كاليتامى والعَجَزة والفقراء)، لتقوم في أوروبا قط، إلا في نهاية القرن الثاني عشر، بعد الحملات الصليبية التي عرّفت الفرسان الأوروبيين على المستشفيات العربية، فأنشأوا بعد عودتهم إلى بلادهم مستشفيات مثلها خصصت للمرضى، وإن كان قد مرَّ زمن طويل على هؤلاء بعدها، حتى استطاعوا أن يقوموا بالمعالجة الطبية على أكمل وجه»[3].

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) «تراث الإسلام» للمستشرق الألماني مايرهوف Meyerhof: The Legacy of Islam.

(٣) «شمس العرب تسطع على الغرب» للدكتورة زيغرد هونكه ص٢٢٥.

مستشفى «أوتيل ديو»:

كان مستشفى «أوتيل ديو» في باريس أشهر المشافي الغربية في القرون الوسطى، وقد جاء ذكره في كتاب ألّفه «ماكس نوردو» قال فيه عن هذا المستشفى[1]:

«**كان يستلقي في الفراش الواحد أربعة مرضى أو خمسة أو ستة**، فترى قدمي الواحد في جانب رأس الآخر، والأطفال الصغار إلى جانب الشيوخ الشيب. حقاً إن هذا لا يصدّق، ولكنه الحقيقة الواقعة، وهناك امرأة تئن بين مخالب المخاض، إلى جانب رضيع يتلوى من التشنجات، ورجل مصاب بهذيان الحمى، إلى جانب مسلول يسعل سعلته الجارحة، ومصاب بأحد الأمراض الجلدية يمزق جلده الأجرب بأظافره الثائرة، وكان يقدَّم للمرضى أدنى الأطعمة بمقادير قليلة وفواصل غير منتظمة، وتتراكم الحشرات في الدار كلها، وتفسد رائحة الهواء في قاعات المرضى حتى أن الزوار ما كانوا يجرؤون على دخولها إلا بعد أن يضعوا على وجوههم إسفنجة مبلّلة خلاً، **وتبقى عادة جثث الموتى أربعاً وعشرين ساعة في الفراش**، ويغلب أن تبقى مدة أطول قبل أن تنقل. وكان المرضى في هذا الجو العصيب يقاسمون الجثث الفراش الذي خبث ريحه في هذا الجو الجهنمي، وحامت عليه دباب الجيف».

وذكرت سيرة هذا المستشفى مجلة «تقدم العلاج» فقالت[2]:

«إن هذا المستشفى أُسس سنة ١٦٦٠م، وكان شعاره إيواء الناس ومعالجتهم دون أن يكون لقبولهم أو خروجهم قيد أو قانون، فكانت مساحات غرفه وقاعاته لا تتناسب مع عدد اللاجئين إليه، وقد وصفه في القرن الثامن عشر «باللي» و«تينون» و«لافوازيه» في تقريرهم وصفاً تقشعر منه الأبدان؛ إذ رأوا الموتى جنباً إلى جنب مع الأحياء، كما رأوا الناقهين

---

(١) Haggards, H., Devils W. Drugs and Doctors.

(٢) مجلة «تقدم العلاج» العدد السادس من سنة ١٩٢٨ «أميل كساب». عن كتاب موجز تاريخ الطب عند العرب للأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي ص١٥.

مختلطين في غرفة واحدة مع المرضى والمحتضرين. وكان المرضى يسيرون في الممرات الخارجية حفاة الأقدام صيفاً شتاءً لاستنشاق الهواء الخارجي.

وقد رأوا في الدور الثالث قاعة للناقهين لا يستطاع الدخول إليها إلا بالمرور في قاعة أخرى وضع فيها المصابون بالجدري. وغرفة المجانين كانت ملاصقة لغرفة الذين أُجريت لهم العمليات الجراحية الكبيرة، وكثيراً ما كان يوضع في غرفة واحدة المصابون بأمراض معدية وغير معدية على السواء. وكانت غرفة العمليات حيث الشق والقطع والبتر تأوي الذين تعمل لهم العمليات في الغد، فكانت تعمل في وسط الغرفة نفسها، وكان المريض يرى أمامه تحضيرات العذاب، ويسمع صراخ المعذبين، فإن كان ممن ينتظر دوره في الغد، كانت أمامه صورة أوجاعه المقبلة، وإن كان ممن مرَّ بهذا الجحيم كان أمامه منظر يذكّره بالأوجاع التي قاساها.

وكانت إحدى القاعات معدَّة للنساء الحوامل متزوجات كنَّ أو باغيات، صحيحات أو مريضات، ينمن كل ثلاث أو أربع في سرير واحد، يتحملن الأرق وخطر العدوى، وكان أكثرهن يموت، والتي نجت من الموت تخرج فاقدة القوى، تجر أذيال الضعف والمرض. وكان معدل الموت واحداً إلى أربعة، وينطبق عليه القول المأثور «الداخل إليه مفقود، والخارج مولود». ولم تعمل فيه يد التحسين إلا بعد الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩م»[1].

وتصف المستشرقة الألمانية الدكتورة «زيغرد هونكه» أفضل مستشفيات أوروبا، مستشفى «أوتيل ديو» في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» فتقول:

«كان ثمةَ قشٌّ كثير موضوع على الأرض. تزاحم عليه المرضى.. وأقدام بعضهم إلى جانب رؤوس الآخرين.. الأطفال قرب الشيوخ.. والرجال بجانب النساء بشكل يدعو إلى العجب.. ولكنه كان حقيقياً...

---

(١) المرجع السابق ص١٥.

وكان قرب المتوعكين توعكاً بسيطاً أناس ذوو أمراض معدية.. وأناس كثيرون، منهم الحبلى التي تعاني آلام المخاض، والطفل الذي يعالج سكرات الموت، والمصاب بالتيفوس الذي يهذي من الحمى، ومريض السل الذي مزّق صدره السعال يبصق دماً، والمصاب بالمرض الجلدي يمزق جسمه بأظافره حكاً...

أجل، لقد كان ينقص المرضى أمور هامة كثيرة: فالطعام سيىء يُقدم لهم في قلة وندرة عجيبتين، وفي أوقات متباعدة.. وأما كمية الطعام فهي ضئيلة جداً، لا تُزاد إلا إذا أشفق على هؤلاء المرضى رجلٌ وجيه من أعيان المدينة وأرسل لهم شيئاً من الغذاء.

لهذا السبب فُتحت أبواب المستشفيات ليلاً ونهاراً، وأجيز لكل إنسان أن يلجها مزوداً بما شاء، ساعة يشاء. وقد يتفق لهؤلاء المرضى أن يُحرموا الطعام أياماً كثيرة، فيتضورون جوعاً وألماً، كما يتفق لبعضهم، في بعض الأحيان أن يموتوا شبعاً وتخمة.

كان المبنى الذي يضم المرضى يزدحم بأخطر الحشرات، أضف إلى ذلك، فساد الهواء في الداخل لدرجة لا تطاق ولا تحتمل، حتى إن المولجين بالأمر، كانوا إذا دخلوا القاعات، ستروا أنوفهم وأفواههم بإسفنجة مبلّلة خلاً. وكانت جثث الموتى من المرضى تُترك مدة أربع وعشرين ساعة، وفي الغالب أكثر، قبل أن تنقل، فيضطر المرضى الآخرون، خلال ذلك الوقت، أن يشاطروا الجثث هذا المكان، الجثث التي يدب فيها الفساد بسرعة في جو جهنمي كهذا، فتفوح الروائح النتنة في الأجواء، وينقضُ البعوض ويهجم ممعناً نهشاً وأكلاً من اللحم العفن»[1].

ويقول المستشرق «مايرهوف» في كتاب «تراث الإسلام»:

«ونستطيع القول بأن تأسيس المستشفيات في أوروبا خلال القرن الثالث عشر، التي لم تعد بعد تحت المراقبة الإكليروسية فقط، كان إلى حد

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» د. زيغرد هونكه، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

ما ناتجاً عن أثر الحروب الصليبية، فقد كانت على ما يبدو تقليداً للمستشفيات الفخمة، كتلك التي أقامها الحاكم نور الدين في دمشق، أو تلك التي أقامها السلطان منصور قلاوون في القاهرة. ولقد أُعجب الرحّالة الأوروبيون كثيراً بالمؤسسة الأخيرة في القرون التالية، فأسس البابا «أنوسنت الثالث» في روما في بداية القرن الثالث عشر مستشفى «سان سبيريتو»، وأسس لويس التاسع مستشفى وملجأ «لي كانزفان» بباريس بعد عودته من حملته الصليبية المشؤومة»[1].

ويقول البروفسور «مونتجومري وات»: «إنه من المرجح أن تكون خبرات الصليبيين قد أدّت في حوالي عام ١٢٠٠م إلى تأسيس أولى المستشفيات التي لا تأوي غير المرضى.

غير أن هذه المستشفيات كانت أدنى مستوى من المستشفيات العربية في أمور مثل تخصيص أجنحة مستقلّة للأمراض المعدية. وقد كان الأطباء يزورون المرضى في المستشفيات، غير أن أول حالة معروفة لمستشفى بها طبيب مقيم هي مستشفى ستراسبورغ، وذلك في عام ١٥٠٠م. أما تلقين العلم وتدريب الطلَبَة في المستشفيات ـ وهو ما جرت عليه عادة العرب ـ فلم تنقلهما أوروبا عنهم حتى حوالي عام ١٥٥٠م»[2].

الفرنجة يتداوون عند العرب:

تذكر الدكتورة «هونكه» في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» أنه في عام ١٢١٨م صحب الطبيب الجراح «هوغو» البولوني الصليبيين في حملتهم الصليبية الخامسة، وحلّ معهم في الأراضي المقدسة وكان قد بلغ السبعين من عمره وعمل كجرّاح ومختص مسؤول أمام المحكمة من قبل.

وكان حصار «دمياط»، وما نتج عنه من أزمة جوع وبرد وتفشي

---

(١) مايرهوف «تراث الإسلام» ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

Meyerhof: The Legacy of Islam: P349-350.

(٢) «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» مونتجومري وات، ص٩٣.

أمراض كافياً ليشغله. وظلّ «هوغو» يضمد جراح مواطنيه ويجبر كسورهم مدة ثلاث سنوات.

وكان يرى أن كثيراً من الأسياد الأوروبيين يفضّلون الذهاب إلى جانب الأعداء (أي العرب والمسلمين) للتداوي، على الرغم من زجر الكهَنَة لهم، وتحريم رجال الكنيسة، فلم يكن ينفع في هذا المجال تهديد ولا وعيد. وكثيراً ما ردّد رجال الكنيسة على أسماع الناس كلمات بهذا المعنى: «تحت ستار طبهم وعلاجهم للجروح وعقاقيرهم يخبىء أطباء الكفر (تقصد المسلمين) للمسيحيين خبثاً ومكراً لإلحاق الضرر بهم أو قتلهم غيلة».

إن هذه الكلمات لم تكن لتغير من موقفهم شيئاً، وظلوا يفضلون التداوي على أيدي أطباء الأعداء (تعني المسلمين).

إن ما رآه هوغو في معالجة الجروح كان بمثابة الصدمة له، فإن تغطية الجروح بالمواد الزلالية، والحفاظ على القيح واعتبار القيح جيداً للجرح، لم تكن كل هذه الأشياء إلا أخطاء فاحشة في الطب دفع ثمنها الكثيرون حياتهم، ذلك أن الأطباء المصريين كانوا يداوون الجِراحَ بنجاح كبير حين يلفّونها بضمادات ساخنة مشبعة بالخمرة القوية، ويتركونها على حالها غالباً خمسة أو ستة أيام، تشفى بعدها بسرعة، وكأنها لم تكن، دون أن تترك وراءها إلا أثراً نحيلاً بلا مضاعفات أو تجاعيد.

وأما في معالجة كسور العظم، فإن المصريين ما كانوا يستعملون إطلاقاً آلات التعذيب كما كان متبعاً في أوروبا.

لقد عاين «هوغو» كيف أن الأطباء العرب كانوا يعمدون إلى تخدير الجرحى بالحشيش ونبات السيكران وغيرها قبل أن يلجأوا إلى المبضع»[1].

وتذكر كتب التاريخ الطبي الغربي أن الطبيب «فرنسيسكو دولاهاي» كان يوصي في سنة ١٦٩٤م بوقاية الأسنان من الأمراض، بحمل سن شخص ميت، كما كان يوصي غيره للغاية نفسها بتطويق العنق بعقد من

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

أسنان الخلد، أو بأكل معقود العناكب، أو المضمضة بالبول، أو مس اللثة بزيت السرو على أن يمزج به مسحوق عظام الكلاب، وغير ذلك من معالجات خرافية يمجُّها الذوق، ولا تمتُّ إلى العلم بأية صلة.

ويقول المؤرخون أنه بينما كان الغرب على الحالة التي بيَّناها كان العرب متقدمين في سائر العلوم، وكانت وسائلهم في الوقاية من الأمراض مستندة إلى أسس علمية، فكانت عنايتهم بنظافة الأسنان تعتمد على تسويكها مراراً في اليوم[1].

وتقول الدكتورة «هونكه»:

«لقد كان كل رجال العلم الأوروبيين ومعلميه وأساطينه يتبعون، بصورة اسمية أو عملية، رجال الكهنوت، ويتقيدون بأوامر الكنيسة، عدا جماعة سالرنو وجماعة نابولي، وذلك بعكس الأطباء والعلماء العرب الذين كانوا يقفون أحراراً في الحياة، غير مقيدين إلا بقيود الحقيقة والعلم.

فالإيمان الأعمى المطلق بالسلطة القائمة دون جدل أو نقاش، كانا من واجبات من آمن بالكنيسة، وأصبحا طبيعة ثانية لديهم. لذلك لجأ الجميع إلى الاكتفاء بما تقوله لهم الكنيسة، فلا هم يبحثون عن حقيقة ما يسمعون، ولا هم يحققون صحة المعطيات بوسائطهم الخاصة»[2].

قصيدة تشوسر الشهيرة:

في قصيدته الشهيرة التي نشرها في كتابه «أقاصيص كنتربري» يصف تشوسر «الدكتور في الطب» العالِم الواسع الاطلاع والقادر على عمل كل شيء - وتوضح تلك الصورة الأدبية الحال التي كان عليها الطب في العصور الوسطى في أوروبا -:

«كان بصحبتنا رجل عارف بالطب، ولم يكن له، في العالم كله، من

---

(١) «العرب والطب» د. أحمد شوكت الشطي، ص١٠١.

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» د. زيغرد هونكه ص٣٠٧.

مثيل، ولا من ندٍّ في الحكمة (الطب)، والجراحة؛ ولأنه كان ضليعاً بعلم الفلك (ويريد القول: بعلم التنجيم)، فقد كان يلازم مريضه، ملازمة تامة الساعات الطوال، ليطبق عليه سحره الطبيعي.

كان ناجحاً في الهيمنة بصوَرِه على مريضه،

وكان يعرف أسباب كل الأدواء، سواء أتت من الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو الجفاف،

وكان يعلم من أين تنشأ، وفي أي خلط تتكون».

وهكذا نجد هنا الطبيب الذي يصف العلاج، بحسب المعتقد الخرافي لأسباب المرض!!

ويسهر الطبيب على صحة مريضه، في أوقات اقتران الكواكب في بروجها، وذلك لتطبيق العلاج في اللحظة المناسبة!! وكان يرقب ظهور النجم الملائم أو صدور إشارة من البروج تحمل الحظ لمريضه!![1]

الرياض ١٤١٠

(١) «مسيرة الطب في الحضارات القديمة» د. جوزيف كلاس، ص٢٤٦ ـ ٢٤٨.

الفَصْل الثّانِي

المستشفيات الإسلامية

كان العرب يسمون المشافي (بيمارستانات)، ويخففونها فيقولون «مارستانات». وهي في الأصل كلمة فارسية معناها «مكان المرضى».

وأول ما شيد منها كان في دمشق بزمن الأمويين، ثم شاع استعمالها في زمن العباسيين. وكانت المارستانات مدارس للتعليم والتخريج، وأمكنة للاستشفاء، وتمرين الطلاب. فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المرضى. وقد كان حول المسجد الأموي بدمشق ثلاث بيمارستانات يمرُّ الماشي عليهن جميعاً في دقيقتين.

وكانت المستشفيات العربية الإسلامية على أنواع. فمنها الثابتة، ومنها المتنقلة.

١ ـ المشافي الثابتة:

أ ـ المشافي العامة:

كان لكل مدينة كبرى في الإمبراطورية العربية الإسلامية مستشفى عام واحد على الأقل، وكان التشابه عظيماً بين هذه المستشفيات، ولكل مستشفى عام أروقة خاصة للذكور والإناث، وكان للمستشفيات أوقاف تعولها، وكانوا يعتبرون مقام إدارة المستشفى من أعظم مقامات الدولة.

ب ـ مشافي الاختصاص:

واشتهر منها مشافي الجذام، ومشافي الأمراض العقلية.

٢ ـ المشافي المتنقلة:

وهي على أنواع: مشافي للإسعاف الأولي، ومشافي حربية، ومشافي محمولة.

أ ـ مشافي الإسعاف الأولي:

كان النبي ﷺ أول من أمر بالمستشفى الحربي المتنقل في الإسلام، فقد روي أن رسول الله ﷺ جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها رفيدة كانت تداوي الجرحى فيها.

ب ـ المشافي الحربية:

وكان للجيش مشافٍ حربية يشرف عليها جرّاح خاص ملحق بالخليفة، وكلما ذهب الخليفة إلى الحرب أخذ معه أطباءه للعناية به وبجيشه، وكانوا يحوّلون الجرحى إلى النساء لتمريضهم، بينما كانت عناية الجرحى في جيوش الصليبيين غير منظمة، يتطوع للقيام بها رفاق الجرحى، أو يترك أمر العناية بالجرحى إلى البغايا اللواتي يتبعن الجيش.

جـ ـ البيمارستان المحمول:

وكان العرب أول من أنشأ المستشفى الذي ينقل من مكان إلى مكان بحسب الأوبئة والحروب[1].

مستشفيات مثالية:

وتصف الدكتورة «زيغرد هونكه» حال المستشفيات في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى فتقول:

---

(١) موجز تاريخ الطب عند العرب، ص٩ ـ ٢٠.

«هناك في المستشفى مركز (يشبه غرفة الطوارىء في هذه الأيام)، حيث يذهب كل مريض أول ما يذهب لكي يعاينه الأطباء المساعدون وطلاب الطب، ومن لا يحتاج منهم إلى معالجة دائمة في المستشفى يعطى وصفة، يحصل بموجبها على الدواء من صيدلية الدار.

وأما من يُدخَل المستشفى، فيحمَّم حماماً ساخناً، ويُلبس ثياباً نظيفة من المستشفى.

وهناك أقسام مختلفة، منها: القسم الداخلي، والقسم الجراحي، وقسم النساء، وقسم العظمية وغيرها.

وفي صباح كل يوم يمر رئيس الأطباء مع رهط كبير من معاونيه (وهو ما يقوم به الأطباء الآن في جولة الصباح على المرضى).

والمستشفى نظيف للغاية، الأسرّة وثيرة وأغطيتها من الدّمَقس الأبيض، والبياض كالحرير، وفي كل غرفة من غرف المستشفى تجد الماء جارياً فيها على أشهى ما يكون، وفي الليالي القارسة تُدفأ كل الغرف، أما الطعام فحدّث عنه ولا حرج.

ومما يروى أن رجلاً ادّعى المرض الشديد أسبوعاً كاملاً أكثر مما كان عليه حقيقة، رغبة منه في التمتع بشرائح لحم الدجاج بضعة أيام أخرى. ولكن رئيس الأطباء شكّ في الأمر، وأرسله إلى بيته بعد أن اتضح له صحة المريض الجيدة بدليل تمكنه من التهام دجاجة كاملة وقطعة كبيرة من الخبز وحده».

وتقول د. «هونكه» أيضاً:

«إن الأوضاع التي ذكرناها تشبه ما نراه في قرننا العشرين العظيم. وبالفعل فإن هذا الكتاب يصف لنا أحد المستشفيات التي كانت تبنى قبل ألف سنة، في كل المدن العربية الكبيرة الواقعة ما بين جبال «الهملايا» وجبال «البيرنيه» فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر، فطغت بهذا العدد على مدينة بغداد

عاصمة الدنيا آنذاك»[1].

المستشفيات كالقصور:

وكان الخلفاء والسلاطين والأمراء يتنافسون في بناء المستشفيات. وتوافرت في تلك المستشفيات كل أسباب الرفاهية التي كانت تتوافر في قصورهم من أسرّة وثيرة ناعمة إلى حمامات كانت تتمتع بها الطبقة الحاكمة في بيوتها.

ومن المعلوم أن هذه المستشفيات، على غناها ورفاهيتها، كانت تفتح أبوابها للفقراء، ولكل أبناء الشعب بدون تمييز.

ومن هذه المستشفيات «مستشفى عضد الدولة» في بغداد. أما «مستشفى النوري» في دمشق، فقد بناه السلطان نور الدين زنكي (١١٤٦ ـ ١١٧٤م) بالأموال التي أخذها لقاء إطلاق حرية ملك الفرنجة. ومن هذا المستشفى أُرسلت العقاقير الطبية إلى قائد الجيوش المصرية الشاب المنصور «قلاوون» عندما أصيب بالقرب من دمشق بنوبات في الكبد. وبعد شفائه امتطى المنصور جواده وانطلق في جمع من أصحابه إلى المستشفى، ومنذ ذلك اليوم رافقته صورة واحة السلام هذه ـ يقصد المستشفى ـ في وسط المعارك، وصورة القاعات الجميلة المنعشة مع المرضى، فأقسم على بناء مثل هذا المستشفى إذا وفقه الله وأوصله إلى سدة الحكم، وهكذا كان، فما أن ارتقى عرشه، حتى نفّذ وعده بسخاء. وارتفع بناء «المستشفى المنصوري».

ولم يكن تأسيس المستشفيات وقفاً على الخلفاء والسلاطين أو الرجال الأغنياء، بل دأب على تأسيسها الأطباء من أمثال سنان بن ثابت، وثابت بن سنان وغيرهم بدعم مالي كبير من الخلفاء والأمراء..

وفي «ميا فارقين» صارعت ابنة الحاكم الصغيرة قوى الموت السوداء،

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ٢٢٧ ـ ٢٢٨ بتصرف.

وعالجت سكرات الحمى على مرأى من أبيها، فحزن هذا وانقبض قلبه، ووعد الطبيب إن أنقذ له ابنته، أن يهبه من الذهب مقدار وزنه.

وعالج الطبيب «شهيد العلماء» الابنة المريضة، فتماثلت للشفاء، وأراد الحاكم أن يبرَّ بوعده، **فطلب منه الطبيب أن يبني بالذهب الموعود به مستشفى**، ففعل نصير الدين وخصص مبلغاً مالياً كبيراً كان يُصرف على المستشفى لتغطية مصروفاته.

وقد يتساءل المرء هنا عن سبب تخصيص أموال كثيرة للصرف على المستشفى؟

والجواب على ذلك بسيط ورائع للغاية: فكل المرضى أغنياء وفقراء، **كانوا يعالجون مجاناً**، فالعلاج الطبي لم يكن ليكلفهم درهماً واحداً، وكانوا يحصلون مجاناً أيضاً على المأوى والغذاء والعقاقير، بالإضافة إلى **تعويض مالي لشهر كامل**، يتقاضونه عندما يتماثلون للشفاء ثم ينصرفون إلى بيوتهم[1].

من أين تاتي أموال المستشفيات؟ ومَنْ يديرها؟

لا شك أن مصاريف المستشفيات كبيرة، فمستشفى المنصوري وحده كان يستهلك سنوياً ما قيمته مليون درهم.

وكانت كل هذه الأموال يُحصَل عليها من **الأوقاف التي كانت تُخصص للمستشفيات لدى تأسيسها**.

وقد أُنيطت إدارة هذه المستشفيات بعظماء القوم، كما أشرفت الدولة عليها أيضاً.

وكان المدير عادة أميراً أو نبيلاً يسوس هذه الإدارة سياسة حكيمة.

أما السلطان نفسه، فكان يطلع باستمرار على مجريات الأمور في المؤسسات الطبية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧ ـ ٢٣١ بتصرف.

وكان القائمون على المستشفيات يسجلون كل الرواتب والنفقات في سجلات خاصة.

كيف يُختار رئيس الأطباء؟

أما الإشراف الطبي، فقد كان من صلاحية رئيس الأطباء فقط، وكان يُختار من بين العديد من زملائه بعد اجتياز امتحان دقيق لكفاءته العلمية. فالرازي مثلاً، قبل اختياره لمنصبه، اضطر أن يبرهن على طول باعه في فن الطب أمام مئة منافس له، وأن يبزّهم جميعاً في المسابقة. وبعد تسلمه لمنصبه أصبح له فريق من الأطباء يجاوز عددهم الأربعة والعشرين كلٌ في اختصاصه، فمنهم المختص بالأمراض الداخلية، ومنهم بالأمراض العصبية، ومنهم الجراحون البارعون، ومنهم المتضلعون بأمراض المفاصل والعظم، ومنهم أطباء العيون، وكل واحد منهم يتسلم إدارة قسم ما، مدة من الزمن ثم يخليه لزميله في الاختصاص وهكذا دواليك[1].

المستشفيات مدارس للطب:

كانت المستشفيات الإسلامية بمثابة مدارس عالية للطب. تقول الدكتورة «هونكه»:

«وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درساً وحفظاً على ضوء الشموع في **قاعات الأديرة**، كانت التجربة العملية في المستشفيات الإسلامية تسير مع العلم جنباً إلى جنب، **على أسرّة المرضى**[2] فتفند الظواهر تفنيداً علمياً، وتُشبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً، بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب، حيث كانت

---

(١) المرجع السابق ٢٣٣.

(٢) وهذا ما يجري حالياً في أمريكا وأوروبا، حيث تعرف كلية الطب باسم المستشفى، وهي عملياً في المستشفى ذاته، فتقول كلية طب سانت ماري في لندن أو شيرينغ كروس وغيرها. على العكس مما يجري في الكثير من البلدان العربية التي قد تكون فيها كلية الطب بعيدة عن المستشفى وعن أسرّة المرضى.

النظريات الجافة تملأ عقول رجال الأكليروس وتحول دونهم والاحتكاك بالمخلوقات ذات الدماء الحارة.

واتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر، فيقابلوا ما قد تلقنوه نظرياً بما يشاهدونه بأم أعينهم[1]. وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم آنذاك مثيلاً إلا في عصرنا الحديث[2].

سجلات المرضى:

وكان لدى المستشفيات الإسلامية محاضر عن الفحوص التي أُجريت للمريض، والقصة المرضية، وعن مختلف العقاقير التي وُصفت له، وتأثير كل منها، وعن تطور حالة المريض. وبكلمة واحدة «تاريخ المرض» كما نسميه في أيامنا الحاضرة.

تشاور الأطباء:

وفي الحالات المستعصية كان يستدعى عدد وافر من الأطباء للتشاور، كما نعهد ذلك في أيامنا هذه وندعوه «كونسلتو»، وذلك للتخفيف من إمكانية الوقوع في أخطاء قد تكون جسيمة، وزيادة في دقة المعاينة وصحة العلاج، وكان أكبرهم عمراً يدير الجلسة وأصغرهم سناً يسجل المحضر.

وفي العمليات الجراحية كان هناك طبيب يشرف على التخدير، وآخر يراقب النبض، وثالث يقوم بالعملية الجراحية، ورابع يساعد الطبيب الجراح.

وكان رؤساء الشعب يستشير بعضهم بعضاً[3].

---

(١) وهذا ما يجري حالياً في العديد من كليات الطب في أمريكا وأوروبا حيث يمضي طالب الطب في السنة الثانية أو الثالثة فما بعد جلَّ وقته في المستشفى. على النقيض مما يجري في كثير من الجامعات العربية حيث لا يدخل طالب الطب إلى المستشفى عملياً إلا في السنة الرابعة غالباً. فاتبع الغرب ما كنا نقوم به، وتخلَّينا نحن عنه.

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٣٥.

(٣) المرجع السابق ص٢٣٩.

وفي العصر الإسلامي كانت تُمنح شهادات رسمية للأطباء الذين يرون فيهم الكفاءة للتطبيب، قبل البدء بمزاولة عملهم. وهذه إحدى الشهادات في الجراحة التي كانت تمنح وقتئذ للأطباء:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. بإذن البارىء العظيم نسمح لـ(فلان) بممارسة فن الجراحة، لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الإتقان، حتى يبقى ناجحاً وموفقاً في عمله. وبناء على ذلك فإن بإمكانه معالجة الجراحات حتى تشفى، وبفتح الشرايين، واستئصال البواسير، وخلع الأسنان، وتخييط الجروح، وطهارة الأطفال، وعليه أن يتشاور دوماً مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم»[1].

أشهر المستشفيات الإسلامية:

١ ـ البيمارستان العضدي:

أنشأه عضد الدولة بن بويه. وفرغ من تعميره سنة ٣٨٦هـ.

٢ ـ البيمارستان العتيق بمصر:

أنشأه أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩هـ (٨٧٢م).

٣ ـ البيمارستان المنصوري بمصر:

أنشأه قلاوون سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م).

٤ ـ المارستان النوري بدمشق:

أنشأه الملك العادل نور الدين زنكي في دمشق (١١٦٠م).

المستشفيات الإسلامية في نظر المستشرقين:

ويتحدث «مايرهوف» في كتابه «تراث الإسلام» عن المستشفيات الإسلامية فيقول:

---

(١) «الإسلام في حضارته ونظمه» للأستاذ أنور الرفاعي.

«أما المستشفيات الأكاديمية فقد انتشرت في العالم العربي، ولدينا من المعلومات الأكيدة ما يتعلق بثلاث وأربعين مؤسسة من هذا القبيل، موزعة في العالم الإسلامي من فارس إلى مراكش، ومن شمالي سوريا إلى مصر.

أما أول مستشفى من هذا القبيل فأسسه ابن طولون في القاهرة سنة ٨٧٢م، وبقي حتى القرن الخامس عشر. وفي بغداد أسس هارون الرشيد أول مستشفى في أوائل القرن التاسع. وتأسس عشر غيرها في خلال القرن العاشر.

وعرفت المستشفيات المتنقلة خلال القرن الحادي عشر.

واحتوت بعض المستشفيات على مكتبات. وتعطينا الكتب التاريخية الإسلامية معلومات دقيقة جداً فيما يتعلق بإدارة هذه المؤسسات. فهي لم تطلعنا على ميزانيتها فحسب، بل أخبرتنا أيضاً عن مخصصات الأطباء والجرّاحين وأطباء العيون والموظفين. وكان العمداء في الأمراض الباطنية والجراحة يلقون محاضرات للطَّلَبة، ويمتحنونهم، ويعطونهم إجازات، وأخضع الحلاقون والصيادلة ورجال الطب إلى المراقبة. وقسمت المستشفيات قسمين: أحدهما للرجال، والآخر للنساء. وكان لكل قسم مستوصفه ومبناه الخاص»[1].

ويذكر «ويل ديورانت» أن نور الدين أسس في دمشق سنة ١١٦٠م مستشفى يعالج فيه المرضى، وتصرف لهم الأدوية بالمجان، واستمرت على هذه الحال مدة ثلاثة قرون. ويقول أيضاً: **«لقد بلغنا أن نارها لم تطفأ قط خلال مئتين وستة وسبعين عاماً متواصلة»**؛ ونعلم عن ابن جبير أنه بينما كان في طريقه إلى بغداد سنة ١١٨٤م، بهرته عظمة البيمارستان العضدي الذي أشرف على شاطىء دجلة كأنه قصر عظيم، وكان أيضاً يقدم الأدوية والغذاء للمرضى بالمجان. وفي القاهرة بدأ السلطان قلاوون سنة ١٢٨١م بناء مستشفى المنصوري، وهو أضخم مستشفى في القرون الوسطى، وكان به

---

(١) «تراث الإسلام» لماكس مايرهوف، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

أقسام منفصلة للأمراض المختلفة، وأخرى للناقهين، وبه مخابر ومستوصفات وعيادات خارجية، ومطابخ لتقديم الغذاء على الطريقة العلمية، وحمامات ومكتبة، وجامع، وقاعة محاضرات، كما كان به على الأخص أماكن مناسبة للأمراض العقلية. أما العلاج فكان بالمجان للرجال والنساء وللفقراء والأغنياء على السواء. وكان يعطى لكل ناقهٍ عند خروجه مبلغ من المال حتى لا يضطر للعمل أثناء نقاهته؛ أما أولئك المصابون بالأرق فكان يرفّه عنهم بالموسيقى الخفيفة، أو برواة القصص المحترفين، أو يزودون بكتب التاريخ في بعض الأحيان»[1].

ومنذ بداية القرن التاسع فصاعداً أصبحت المستشفيات في الديار الإسلامية تموَّل من قبل خزينة الدولة بسخاء، وتعمل بإشراف إدارة طبية. وخلال حكم المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢م) في القرن العاشر وسَّع «سنان بن ثابت» خدمات المستشفى لكي تؤمن احتياجات المناطق القروية المجاورة والسجون والمدينة المركزية ـ وهذا برنامج ما عمد الغرب إلى تبنّيه إلا منذ عهد قريب جداً[2].

ويصف البروفسور «مونتجومري وات» البيمارستان المنصوري في القاهرة فيقول:

«كان من أهم هذه المستشفيات البيمارستان المنصوري في القاهرة والذي أسس عام ١٢٨١م، وكان مقره قصراً سابقاً، ويقال إنه كان يتسع لثمانية آلاف شخص، وقد زوِّد هذا المستشفى بتجهيزات عظيمة، ولم يُكتف بفصل المرضى الذكور عن المرضى من النساء، بل خُصصت أقسام مستقلة للأمراض المختلفة، كالحميات والرمد والديزنتاريا والحالات الجراحية. وكان هناك بالإضافة إلى الجراحين والأطباء ـ وبعضهم من المتخصصين ـ ممرضون وممرضات، وجهاز إداري كبير، وصيدلية ومخازن، ومسجد ومكتبة، وقاعة للمحاضرات بكل مستلزماتها. **وإذا كانت المستشفيات على**

---

(١) ويل ديورانت «قصة الحضارة» ٤/٣٣٠.

(٢) «عبقرية الحضارة العربية» ص١٩٧.

هذه الدرجة من التقدم، فليس لنا أن نعجب أن نسمع عن مؤلفات كتبت في ذلك الوقت في فن إدارة المستشفيات»[1].

وقال «جومار» أحد العلماء الذين استقدمتهم حملة نابليون إلى مصر في كتابه «وصف مدينة القاهرة»:

«أنشىء في القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة، عدة مارستانات، لم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان قلاوون. صرف عليه سلاطين مصر مالاً وافراً، وأُفرد فيه لكل مرض قاعة خاصة مع طبيب خاص، وكان يُجلب له الأطباء من مختلف جهات الشرق، ويجزل لهم العطاء. ويقال إن نفقات كل مريض في كل يوم ديناراً. وكان له ـ للمريض ـ شخصان يقومان بخدمته، وكان المؤرقون من المرضى يعزلون في قاعة منفردة، يشنفون آذانهم بسماع الموسيقى الشجية أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصّاص. وكان المرضى الذين يستعيدون صحتهم يُعزلون عن باقي المرضى، وتمثّل أمامهم الروايات المضحكة، وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب، حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى العمل الشاق في الحال»[2].

وقال «بريس دافن»:

«كانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور، أو تبرّد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثاني.

وفي أواخر القرن العاشر طبقت شهرة «المستشفى العضدي» في بغداد الآفاق، فقد كان الطلاب من الأقاليم الشرقية والغربية في الديار الإسلامية يقطعون مئات وآلاف الأميال لكي يدرسوا في «العضدي». كما كانت شهرة الأطباء المتخرجين منه على كل شفة ولسان. وقد كان جهاز هذه المؤسسة

---

(١) «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» د. مونتجومري وات، ص٥٤.

(٢) جومار: «وصف مدينة القاهرة» نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.

العظيمة يتألف من أربعة وعشرين طبيباً، ومزوّدة بقاعات للمحاضرات، ومكتبة كبيرة.

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر بلغت المستشفيات في سوريا ومصر مستوى رفيعاً في ممارساتها حتى أن المسافرين والمؤرخين كانوا يعتبرونها أحد كنوز الحضارة الإسلامية. لقد كانت تجتذب إليها الطلاب الموهوبين وأحسن أساتذة الطب، كما كانت تتمتع بموارد غنية ورعاية كريمة. وكانت عبارة عن أبنية فخمة فسيحة مجهزة بقاعات مريحة للمحاضرات ومكتبات غنية وأكشاك صيدلانية وفيرة الأدوية، ومخابر فعالة لإعداد وتوزيع العقاقير الطبية.

إن ابن أبي أصيبعة، أعظم مؤرخ في تاريخ الطب في الديار الإسلامية في القرون الوسطى تعلّم في مستشفيين اثنين من أعظم المشافي الإسلامية: النوري في دمشق والناصري في القاهرة[1].

صور من المستشفيات:

يروي خليل بن شاهين الظاهري في كتابه «النجوم الزاهرة» بعد أن زار دمشق «أنه كان بها مارستان لم يرَ مثله في الدنيا قط، دخلتُ دمشق في سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م) وكان بصحبتي رجل من أهل الذوق واللطافة، وكان قصده الحج في تلك السنة، فلما دخل البيمارستان المذكور، ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، قصد اختبار رجال البيمارستان، فتمارض، وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جسَّ نبضه، وعلم حاله، وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة، والدجاج المسمنة والحلوى والفواكه المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له كلمة جاء فيها: إن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام، وهذا في غاية الحذاقة والظرافة»[2].

---

(١) «عبقرية الحضارة العربية» ص٢٩٨.

(٢) «النجوم الزاهرة» لابن شاهين الظاهري ١٦٤/٦.

ويصف الرحالة ابن جبير أثناء زيارته القاهرة سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) المستشفى الذي بناه صلاح الدين بأنه قصر رحب جميل يديره مدير مقتدر، ويلي المدير أمناء يسهرون على راحة المرضى ليلاً نهاراً، وللنساء رواق خاص، وتعتني بهن ممرضات. ولقد تفنّن أطباء العرب في أساليب معالجة المرضى في المشافي حتى اهتدوا إلى المعالجة بالموسيقى، ورُتّب المؤذنون ينشدون على المآذن قبل الفجر بساعتين، بأنغام شجية تعرف بـ «التراحيم»، وذلك تخفيفاً لعناء السهر على المرضى المؤرقين.

ويقدم إلى كل مريض ما يحتاج إليه من فرش وغطاء، ورتب ذلك كله من الأطباء الماهرين والنظّار العارفين، والخدّام المتصرفين، كل من هو موثوق بعدالته، مسلّم له في معرفته، غير مقصر في خدمته[١].

المؤتمرات الطبية:

دعا العباسيون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث كانوا يعرضون أبحاثهم، كما كانوا يعرضون نباتات البلاد الإسلامية، ويصفون خواصها الطبية[٢].

وكانت المؤتمرات الطبية تعقد أحياناً خارج موسم الحج، ففي أوائل القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي، انعقدت ندوة علمية بمدينة نيسابور، بإشراف ورعاية الخليفة المأمون. وحضرها الفلاسفة والأطباء للمذاكرة في طب الأبدان. وكان وفد العراق يتألف من يوحنا بن ماسويه، وجبرائيل بن بختيشوع، وصالح بن بهلة. وقد تعاون الأطباء فيما بينهم على استنباط الاجتهاد في خدمة الصحة العامة[٣].

المستشفيات في الإسلام والتسامح الديني:

كانت المستشفيات تحتضن الجميع، وفيها الطبيب المسلم واليهودي

---

(١) «العرب والطب» للدكتور الشطي، ص٩٧.

(٢)(٣) «الطب عند العرب» د. حنيفة الخطيب، ص٤٤ ـ ٤٥.

والنصراني وكلهم يعمل بجد واجتهاد وبينهم مودة واحترام، كما كان المرضى أنفسهم يتلقون العلاج مجاناً وبنفس الطريقة سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

وقد جاء في خطط المقريزي عن مستشفى قلاوون الذي اشتهر بالنظام والدقة وروعة البناء، والذي كان يعطى فيه لكل مريض عند خروجه من المستشفى خمسة دنانير ذهبية حتى لا يضطر للعمل في فترة النقاهة ما يلي: «أما البيمارستان المذكور من قبل مولانا السلطان فإنه وقف ذلك بيمارستاناً لمداواة المرضى من الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها، والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الأجسام قلّت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها من أعظم المقاصد والأغراض... وغير ذلك مما تدعو إليه حاجة الإنسان إلى إصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة من أهل صناعة الطب، والاشتغال فيه بتعلم الطب، ويدخلونه جموعاً ووحداناً، وشيوخاً وشبّاناً، وبلاّغاً وصبياناً، وحرضاً وولداناً، يقيم المرضى من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معيّن فيه للمداواة، ويفّرق على البعيد والقريب، والأهل والغريب، والقوي والضعيف، والدنيّ والشريف، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير والفاضل والمفضول، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك، بل لمحض فضل الله العظيم».

وكان في قرطبة وحدها خمسون مستشفى، وفي بغداد وفي كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، بل والأرياف، العديد من المستشفيات. وكلها كانت مجانية لوجه الله تعالى، ولم تُعرف في بلاد المسلمين المستشفيات الخاصة إلا في القرن العشرين[1]!!

---

(١) من كتاب: «دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة»، للدكتور محمد علي البار، دار المنارة، جدة.

الفَصْلُ الثّالِثُ

كيف عاملوا المجذومين؟

في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي كتب ابن مسكويه وصفاً شاملاً لمرض الجذام، كمرض معدٍ، دون أن يربطه بغضب السماء. وعامل المسلمون المجذومين معاملة لائقة، وقد خصصت «المجاذم» لعلاج المجذومين.

وأول مؤسسة عرفت في بلاد العرب هي مجذمة الوليد بن عبدالملك في دمشق سنة ٨٨هـ (٧٠٧م)، ثم تعددت المجاذم بعد ذلك.

وتعدُّ المجاذم العربية أول دورٍ عولج فيها المصابون بالجذام معالجة فنية، وكان الدخول إليها غير تابع لقيد أو شرط.

تقول الدكتورة «هونكه»:

«والحق يقال، إن العاطفة الإنسانية التي كانت رائدة العرب في معالجتهم للمرضى، أياً كان نوع المرض وأياً كان خطره، لهي مشرّفة كل التشريف، ولم يعرف لها الأوروبيون مثيلاً، بل لجأوا إلى معاملة المرضى الذين لا رجاء في شفائهم معاملة الحيوانات الضارية، فكانوا يُقصونهم عن المجتمع، ويرمون بهم في أعماق السجون المظلمة، وكأنهم مجرمون أشرار لا خير منهم، ولا يستحقون رحمة أو شيئاً من العدالة الإنسانية. نقول، في

الوقت الذي كان الأوروبيون يتصرفون هذا التصرف، كان العرب يخصصون المستشفيات أو أجنحة المستشفيات لمرضى الجذام وغير ذلك.

وكان عزل المرضى في أوروبا عن بقية البشر عملاً حلّلته الكنيسة، واشترك في تنفيذه رجال الدين ورجال الدولة، الأمر الذي كان يدفع بالمريض إلى الشعور بأنه جثة ميت حي، أو حي في عداد الأموات. ففي فرنسا كان يمنح المريض بداء الجذام، قبل أن تسقط عنه حقوق انتسابه للكنيسة، وحقوقه كإنسان بشكل نهائي، قدّاساً يذهب بموجبه هذا التعيس إلى حفرة في فسحة الكنيسة، ويقذفه الكاهن بالتراب ثلاث مرات، وكأنه يودع الحياة وداعاً أبدياً، ثم ينفى إلى بقاع نائية مخصصة لمرضى الجذام»[1].

كيف واجهوا الطاعون؟

وحتى الأوبئة المميتة التي كانت تعيث فساداً مخيفاً في أوروبا خلال القرن الرابع عشر كالطاعون، فإنها لم تُخِفِ العرب، ولم يكن لها أية أسباب سحرية بالنسبة إليهم. تقول الدكتورة زيغرد هونكه:

«وفي الوقت الذي كان فيه العرب ينظرون إلى مثل هذه العوارض والأمور نظرة علمية بحتة تدعمها التجربة ويغذيها البحث والتدقيق، كان النصارى في أوروبا يقفون أمامها مكتوفي الأيدي، وقد سيطرت على عقولهم اعتقادات مهترئة أعمت أبصارهم.. وهذا دليل على ثقافة العرب آنذاك، وتأخر النصارى الفكري في أوروبا.

والجدير بالذكر أن أستاذاً في جامعة مونبيليه خرج عام ١٣٤٨م، وهو عام انتشر فيه مرض الطاعون انتشاراً فاحشاً مخيفاً، خرج بنظرية تقول: إن نظر المريض هو المسؤول عن انتشار الطاعون، وبالتالي فقد نصح الطبيب أو الكاهن أن يطلبا من المريض إغماض عينيه، أو وضع خرقة على عينيه قبل أن يعمد إلى معاينته[2]!!

---

(١)(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

وفي سويسرا وجنوب فرنسا ألصق الشعب باليهود تهمة نشر الطاعون، فحرقوا المئات منهم، الأمر الذي أدى إلى نشر الأوبئة والجرائيم في قسم كبير من المعمور.

وأما في مقاطعتي ناربونة وقرقشونة، فقد انصبّ غضب جماهير الشعب على الإنجليز أعداء المملكة، فأمعنوا فيهم ذبحاً وتقطيعاً وتشنيعاً، وجعلوهم طعمة للنار.

وقد شبّه الأوروبيون مرض الطاعون بالدخان القاتل المنصب من السماء، أو بالبخار السام المنبعث من الشهب الساقطة، أو بالسم المنبثق من باطن الأرض بسبب الزلزال، ونسبوه أيضاً إلى التقاء الكواكب[1].

ويقول «مايرهوف» في كتابه «تراث الإسلام»:

«ولقد كتب ابن الخاتمة المتوفى سنة ١٣٦٩م مبحثاً في الطاعون الذي انتشر بمدينة المرية بإسبانيا (سنتي ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩م)، فتفوق هذا البحث كثيراً على جميع البحوث العديدة التي نُشرت في أوروبا عن الطاعون فيما بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر.

وهذا موضوع لم يخض فيه من قِبَل أطباء اليونان، ومرَّ عليه معظم كتّاب الطب في القرون الوسطى مرَّ الكرام»[2].

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٧٤.

(٢) مايرهوف «تراث الإسلام» ص٣٤٠ ـ ٣٤١ ومن الجدير بالذكر أن أول وصف علمي دقيق للطاعون هو ما جاء في حديث الرسول ﷺ عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: الطعن عرفناه فما الطاعون؟ قال: «**غدة كغدة البعير يخرج من المراق والإبط**». أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الطب ومثله في مسند أحمد وفي الطبراني في الأوسط وأبو نُعيم. وفي رواية أحمد: «**غدة كغدة الإبل، المقيم فيه كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف**». وقد وصفه الفقهاء والمحدثون وصفاً دقيقاً من أمثال الخطابي والغزالي والنووي وابن القيم وكلهم قبل ابن الخاتمة الأندلسي. (انظر التفاصيل) كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» شرح وتحقيق ودراسة د. محمد علي البار ففيه تفاصيل كثيرة. وذكر كتب الحديث والرسائل التي كتبت في الطاعون وهي أكثر من ٧٠ رسالة. وكثير منهم سبق ابن خاتمة.

وتذكر الدكتورة «هونكه» كيف هجم الطاعون على أوروبا عام ١٣٨٢م، فعاث فيها فساداً، وأنزل الرعب بأهلها الذين وقفوا مكتوفي الأيدي، يبتهلون ويقيمون القداديس ويحرقون البخور.

«وفي وسط يأسهم وعجزهم ظهرت النظرية العربية القائلة بانتشار الداء بسبب العدوى، فكانت بمثابة بارقة الأمل وبسمة الحياة. ولما حلّت الموجة الثانية من داء الطاعون، كانت أوروبا قد حضّرت نفسها، واحتاطت للأمر، فمنعت سفناً مشكوكاً بأمرها من الرسوّ في مرافئها، وأصدرت بياناتها الرسمية عن مدى انتشار الوباء، وأقامت محطات الانعزال، ومنعت الاجتماعات، وأحرقت كل الأشياء الموبوءة. وما هذه الأمور إلا شواهد على أن الفكرة الجديدة العربية قد وجدت أرضاً خصبة في البلاد الغربية، وظلت نصائح العرب للقيام بمكافحة الأوبئة بشكل نظامي، نافذة المفعول، وبقيت دون تغيير حتى ظهور قوانين مكافحة الأوبئة»[1].

معالجة المصابين بالأمراض العقلية الذين لا رجاء في شفائهم:

لعل البعض يعجب مما تقوله الدكتورة «هونكه» في هذا المجال:

«ولنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى، فنرى هَوْلاً وبشاعة بالغَين، مبعثهما الاعتقاد السائد آنذاك، بأن هذا المرض لعنة من السماء حلّت بصاحبها عقاباً له على إثم زعموا أنه ارتكبه، أو أن شيطاناً دخل في نفسه، فحُلل عذابه، وأصبح علاج الفرنجة يتركز على طرد الشياطين من الأجسام العليلة.

فكان هؤلاء البشر المعذبون يوضعون في سجون مظلمة، وقد قُيّدت أيديهم وأرجلهم، أو يُعزلون عن العالم وعن أهلهم في «المستشفى السجن» أو «البيت العجيب» أو «برج المجانين» أو «القفص العجيب»، كما كانوا يسمونها آنذاك، ويُسلَّم أمرهم إلى رجال أفظاظ لا يعرفون إلا لغة الضرب والشتم والتعذيب، وذلك أمد الحياة.

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٣١١.

وكانت هناك حالات شاركت العدالة في إثمها، فحكمت بالعقاب على مجنون شتم الثالوث المقدس في مدينة فرانكفورت عام ١٤٥١م، وحكمت بالتعذيب على مجنون آخر يدعى «فوغل» عام ١٤٩٠م، وذلك لأنه جدف التعاليم الكنسية وهزأ بها.

وفي الوقت ذاته كان العرب يخصصون البيمارستانات الخاصة والعيادات المنظمة لاستقبال أمثال هؤلاء، والإشراف على علاجهم»[١].

فقد تأسست مارستانات الأمراض العقلية في زمن الأمويين للعناية بالذين أصابهم مسٌّ أو اعتراهم ضعف عقلي. فقد كان المسلمون يعتبرون المعتوهين مُعدَمين وعالةً على إحسان الدولة، لأن إصابتهم بقضاء من الله وقدره بل وصل الأمر إلى اعتبار المجذوبين أنصاف أولياء، وكلمة مجذوب يقصدون بها أن الله قد جذبه إليه؛ وبالتالي تجب معاملته بالحسنى، بل؛ ويتبركون به!

ولقد جاء في صكّ الأوقاف التي حُبس ريعها لصالح المستشفى النوري، أو العتيق بحلب أن كل مجنون يُخَص بخادمين فينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد ثم يُلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة، ويسمعانه قراءة القرآن، يقرؤه رجل حَسَنُ الصوت، ثم يفسّحانه في الهواء الطلق[٢].

أما في أوروبا ـ فكما تقول الدكتورة هونكه ـ: «فقد ظل هذا المريض نفسه يعامل كمجرم فيسجن ويعذب ويهان، وذلك حتى القرن التاسع عشر.

ففي نهاية القرن الثامن عشر طالب الطبيب «بينل» في فرنسا في مجلس الأديرة بالسماح له بتحرير المجانين السجناء، وبتسليمهم لعناية الأطباء»[٣].

وقد امتدت الرعاية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة الإسلامية، إذ كان الأطباء المسلمون يزورون السجون من حين لآخر لعلاج المسجونين، كما

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٥٤.

(٢) «العرب والطب» للدكتور أحمد شوكت الشطي، ص٩٥.

(٣) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٥٦.

قاموا بزيارات للقرى النائية، واهتم الأطباء المسلمون أيضاً بعلاج الأمراض النفسية، فلم يتجنب الأطباء المرضى، وينظرون إليهم نظرة احتقار، كما كان يفعل الأوروبيون معهم آنذاك. واستمرت هذه المعاملة قروناً، فقد ظلَّ المريض نفسياً محتقَراً في أوروبا. وكان الأوروبيون يفرُّون منهم كما يفرون من مرضى الجذام، ويتجنبونهم كما يتجنبون المجرمين»[1].

ويذكر البروفسور «جاك ريسلر» في كتابه «حضارة العرب»: «أن المسلمين أنشأوا أول مصح للأمراض العقلية في بغداد منذ القرن الثاني الهجري، **أي قبل إنشاء مصح ڤالانسا في أوروبا بسبعمائة سنة**. وبينما كان المرضى العقليون يعتبرون مجرمين أو مسكونين بالشيطان في أوروبا، كان المسلمون يعالجون المرضى برحمة ورعاية يتولاها أطباء متخصصون في الأمراض العصبية. وصار هناك في وقت مبكر مصحات للمرضى العقليين والنفسيين في كل المدن الإسلامية الكبرى»[2].

علاج الميؤوس منهم:

لقد تعدَّى المسلمون الآفاق الخلقية التي وصل إليها الطب لدى الإغريق. فقد عرَّف أبوقراط الطب بـ«الفن الذي يُنقذ المرضى من آلامهم، ويخفف من وطأة النوبات العنيفة، ويبتعد عن معالجة الأشخاص الذين لا أمل في شفائهم، إذ أن المرء يعلم أن فن الطب لا نفع له في هذا الميدان».

وكان الرازي أول من فكَّر بمعالجة المرضى الذين لا أمل في شفائهم، واهتم بهم كل الاهتمام، وطالب الطبيب أن يوهم مريضه بالصحة، ويرجِّيه بها، وأن على الطبيب أن يسعى إلى بث روح الأمل وقوة الحياة في نفس المريض مهما كانت حالته.

كيف لا، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**إذا دخلتم على**

---

(١) «الإسلام في الفكر الأوروبي» للدكتور محمد شامة، ص١٣٧.

(٢) «حضارة العرب» د. جاك ريسلر، ص١١٩.

المريض، فنفّسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يردُّ شيئاً، وهو يطيّب نفس المريض»[1].

المعالجة بالإيحاء:

زعم الطب الحديث أن أول من عالج بالإيحاء هو الطبيب الفرنسي الشهير (شاركو) في القرن التاسع عشر، ويُستشهد على ذلك بمعالجته لفتاة أنيقة أصابها بكمٍّ نفساني عصى على المعالجة، فلم تفد جميع الأدوية التي وصفها كبار الاختصاصيين آنذاك.

بحث شاركو في حاضر المريضة وسوابقها فتبيّن له أن مرضها غير عضوي، وأن المعالجة بالإيحاء هي الطريقة الوحيدة للشفاء، وقد عرف من ذويها شدة عنايتها بتصفيف شعرها. اتفق الطبيب مع مساعد له أن يدخلها في غرفة مجهزة بآلات عديدة توحي بالرهبة، وأن يوهم المعاون حرق شعرها متى أذن له بذلك.

دخلت المريضة الغرفة وحدها، وشرع الأستاذ شاركو بفحصها فحصاً دقيقاً ولّد عندها شعوراً بالهيبة والرهبة، أشار حينئذ إلى معاونه بأن يقوم بعمل ما، اتفقا عليه، فوقف المعاون خلفها وأشعل ثقاباً من الكبريت بملاصقة شعرها، فصاح الأستاذ فيه متظاهراً بالغضب: «لقد أشعلتَ شعر الفتاة؟!! تباً لك ولعملك!». فما كان من الفتاة إلا أن أسرعت بمغادرة الغرفة صائحة بأعلى صوتها: شعري، شعري، ففكّ بذلك عقاد لسانها، وتم شفاؤها بالإيحاء من البكم الذي أصابها.

والواقع أن المعالجة بالإيحاء برع بها أطباء العرب، ومن ذلك ما روي عن أبي البركات هبة الله بن ملكان، وذلك أن مريضاً ببغداد أصيب بالسوداء (المانخوليا)، وكان يعتقد أن على رأسه برميلاً، وأنه لا يفارقه أبداً، فكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق، ولا يترك

---

(١) رواه ابن ماجه، والترمذي.

أحداً يدنو منه حتى لا يميل البرميل أو يقع عن رأسه، فعالجه جماعة من الأطباء دون جدوى، وانتهى الأمر إلى ابن ملكان. ففكر الطبيب ابن ملكان أنه ما بقي شيء يمكن أن يبرأ به إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنتُ في الدار فأتوني به. وأشار ابن ملكان إلى غلامه بإحضار برميل دون أن يشعر المريض بذلك، فلما أقبل المريض على ابن ملكان قال له: والله لا بد لي أن أكسر هذا البرميل، وأريحك منه، ثم أدار خشبة وضرب فوق رأسه بنحو ذراع؛ وعند ذلك رمى الغلام البرميل من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسّر قطعاً كثيرةً. فلما عاين المريض ما فعل به، ورأى البرميل المنكسر تأوّه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه هو البرميل الذي كان على رأسه بزعمه، وأثّر فيه الوهم أثراً برىء فيه من علّته تلك.

وهذا باب عظيم في المداواة. وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من الأطباء المتقدمين، ومنها القصة الآتية التي ذكرها الرازي في مشاهداته عن العلاج النفساني:

فقد استُدعي الرازي لعلاج أمير بخاريٍّ كان يشكو من آلام عصت على المعالجة، فعالجها الرازي دون فائدة، وفي النهاية قال للأمير: «إنه في غدٍ سيجرب علاجاً جديداً، ولكن على شرط أن يضع الأمير تحت تصرفه أسرع جوادين في اسطبلاته؛ فوافق الأمير.

وفي اليوم التالي قصد الرازي مع الأمير حمّاماً بظاهر المدينة، وربط الجوادين مسرّجين خارج الحمام، ودخل غرفة الحمام الساخنة مع مريضه الأمير، ثم صبّ عليه الماء الساخن، وسقاه الدواء إلى أن نضجت الأخلاط في مفاصله، ثم تركه وخرج ولبس ملابسه، وعاد يحمل سكيناً في يده، دخل الرازي على الأمير وأظهر الغضب في وجهه، وأخذ يُؤنّب الأمير، ويهدده ويعنّفه، واشتد في تعنيفه، فاستشاط الأمير غيظاً، وبتأثير عامل الغضب والخوف اللذين ألقاهما الرازي في روع الأمير، وثب الأمير على قدميه ونهض واقفاً بعد أن كان لا يستطيع الوقوف، وفي الحال هرب الرازي من الحمام إلى حيث كان ينتظره خادمه مع الحصانين، فركبا بأقصى سرعة،

وعاد الرازي إلى بلده. وهناك كتب للأمير كتاباً قال فيه أنه لما عالجه بما أوحاه إليه ضميره قدر استطاعته لم يتيسر شفاؤه، وأنه خشي أن تطول مدة مرضة، لذلك لجأ إلى العلاج النفساني على الطريقة التي ابتدعها له، وأتت بالشفاء، وأنه أصبح من غير اللائق أن يعود لمقابلة الأمير بعد ذلك.

فلما هدأت عن الأمير ثورة الغضب، واشتد سروره بشفائه ورجوع صحته، أمر بالبحث عن الرازي في كل مكان، ولكن عبثاً، إلى أن رجع خادمه بعد حين مع الحصانين حاملاً خطاب الرازي، فلما رأى الأمير عزم الرازي على عدم الرجوع كافأه بحلّةٍ نفيسة وسيوف وعبدٍ وجارية وجواد مُطَهم وأجرى عليه ألفي دينار سنوياً وأرسل له مائتي جمل من الحنطة[1].

رسم قديم يمثل الطبيب العربي الشهير «أبو بكر الرازي» وهو يقوم بإعداد بعض العقاقير الطبية. وقد ألف الرازي أكثر من ٣٥٠ كتيباً في حقل الطب.

(١) «العرب والطب» ص١٠٧ ـ ١٠٩.

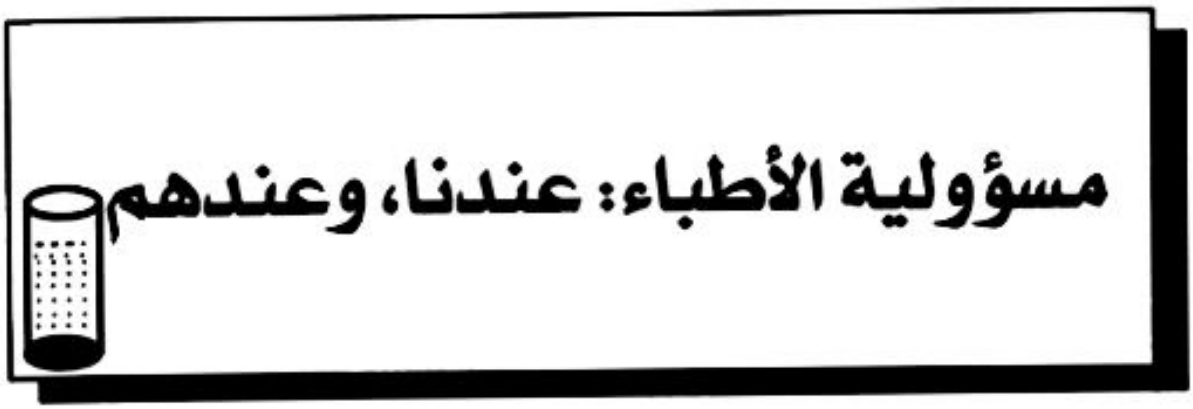

مسؤولية الأطباء: عندنا، وعندهم

المسؤولية الطبية عند الأوروبيين:

كانت أوروبا غارقة في دياجير الجهل والظلام عندما انتشرت أنوار الإسلام وحضارته.

وكان القوط الشرقيون (حسب قانون الكنيسة لديهم) يسلِّمون الطبيب إلى أهل المريض وأسرته ليقتلوه أو يتخذوه رقيقاً مدى الحياة.

يقول رونالد كامبل في كتابه «الطُّب العربي»: «إن الملك ثيودور أحد ملوك القوط الغربيين أصدر أمراً بأنه إذا توفي المريض نتيجة لعملية جراحية، فإن الطبيب الذي أجرى العملية يُسلَّم لأهل المتوفى، ولهم الحرية الكاملة ليفعلوا به ما يشاؤون، إن كان قتلاً أو استرقاقاً لمدى الحياة»[١].

وكانت المحاكم في بيت المقدس إبان الاحتلال الصليبي لها (القرن الثاني عشر الميلادي) تحكم على الطبيب إذا توفي العبد المريض بدفع ثمنه لسيده، وأن يترك الطبيب المدينة. أما إذا كان المريض حُرّاً ومات فيشنق الطبيب. وإذا أدى التداوي إلى إطالة المرض ولم يشف العليل ولكن لم يمت فإن أيدي الطبيب تقطع ويُحرم الأجرة.

---

(١) «الطب العربي» لرونالد كامبل.

ولذا فإن الأطباء الأوروبيين كانوا يحجمون عن مداواة المرضى إلا بعد أن يكتب المريض وأهله تعهداً بإخلاء الطبيب من المسؤولية طالما أنه لم يقصّر في العلاج.

ولما مرض ملك أورشليم أموري الأول (١١٦٢ ـ ١١٧٣م)، رفض أطباء القدس مداواته خوفاً على حياتهم، فلجأ إلى الأطباء الأجانب الذين اشترطوا عدم العقوبة في حال فشل علاجهم في شفائه من مرضه[١].

نظام الحسبة في الإسلام:

اهتم المسلمون بتحقيق مبدأ المسؤولية عندما طبقوا نظام الحسبة، وكان من واجبات المحتسب أن ينظر في أعمال الأطباء والصيادلة والكحّالين والحجّامين والفصّادين.. إلخ، ويعرف مستواهم العلمي والتطبيقي وكيفية ممارستهم للمهنة.

وفي حوالي عام ٩٣١م وصل إلى علم الخليفة المقتدر أن طبيباً بغدادياً ارتكب خطأً فنياً لدى معالجته أحدهم، فأودى به إلى الموت، فأصدر الخليفة أمراً بالتحقيق مع كل الأطباء، والتأكد من حيازتهم على تصريح بالعمل، ثم أنشأ غرفة للأطباء، وعيّن سنان بن ثابت رئيساً لها، وأمره أن يمتحن كل طبيب على حدة، فإذا وجده ضليعاً في فرع من فروع الطب أعطاه تصريحاً بالعمل فيه.

تقول الدكتورة «زيغرد هونكه»:

«وقد بلغ عدد الأطباء المرخصين في جانبي بغداد ثمانمائة وستين رجلاً، **في الوقت الذي لم يكن في كل مقاطعات الراين طبيب واحد**»[٢].

ويعتبر نظام الحسبة في الإسلام من أروع النظم التي طُبّقت في تاريخ

---

(١) «المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب» للأستاذ الدكتور محمد علي البار، ص٣٢ ـ ٣٤. إصدار دار المنارة ـ جدة.

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٣٥.

البشرية للحفاظ على المصالح العامة. وكان من نتائج نظام الحسبة في المجال الطبي أن منع دخول المتطببين الجهَلَة إلى ميدان الطب لكيلا يضروا بالناس. ولم يكن المحتسب أو من يقوم مقامه يسمح للطبيب بالممارسة إلا بعد أن يمتحنه كبار الأطباء ويصدرون له إجازة بالممارسة. وكان المحتسب يراقب أعمال الأطباء والصيادلة والعشّابين حتى لا يحدث خلل أو خطأ، وله سلطات واسعة في معاقبة المعتدي عند ثبوت عدوانه[1].

يقول المستشرق «ليكلير» في كتابه «تاريخ الطب عند العرب»:

«وقد عُرف المحتسبون في إسبانيا أيضاً، حتى إن كلمة «محتسب» لا تزال تستعمل حتى اليوم في اللغة الإسبانية، كما أن هذه الوظيفة، ووظيفة عميد الأطباء لم تعرف في بغداد والأندلس فقط، وإنما عرفت في سوريا ومصر أيضاً»[2].

المسؤولية الطبية في الإسلام:

يُجمع الفقهاء على عدم ضمان الطبيب الحاذق المأذون له من جهة الشارع، ومن جهة من يطبُّه (المريض أو وليه) متى أدى عمله الطبي حسب الأصول الطبية المقررة المعترف بها، ولم يخالف أصول المهنة ولم تخطىء يده، ويقرر ذلك شهود عدل من ذوي الخبرة في الطب يعيّنهم القاضي أو المحتسب، كما أن الإجماع منعقد أيضاً على أن المتطبب الجاهل يضمن ما أتلف من نفس أو عضو، ولكنه لا يقتصُّ منه لأنه لم يتعمد الإضرار بالمريض ولأنه لا يستبدُّ بذلك دون إذن المريض أو وليه.

وتقع الديَّة على المتطبب الجاهل سواء قلَّت أو كثرت، ولا تحمل العاقلة (وهي العصبة أو قبيلة الشخص أو أهل ديوانه في العطاء) من ذلك شيئاً.

وأما الطبيب الحاذق الذي أخطأ في معالجته أو زلَّت يده، فإن عليه

---

(١) «المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب» للدكتور محمد علي البار، ص٣٦ .إصدار دار المنارة ـ جدة.

(٢) Leclerc: Historie de la Medecine Arabe Voll, 576-8.

الضمان. فإن كانت الدية أقل من ثلث دية النفس، فهي في ماله، وإن زادت على ذلك فهي على العاقلة (العصبة، القبيلة... إلخ)[1].

طبيبان عربيان يفحصان مريضاً أحدهما يجس نبضه وثانيهما يحاول معرفة درجة حرارته منقولة عن رسم يرجع تاريخه إلى عام ١١٥١م

(١) انظر كتاب «المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب» للأستاذ الدكتور محمد علي البار، ص١٤٧ ـ ١٤٨ وفي الكتاب تفصيل واف وكاف لمسؤولية الطبيب عند الفقهاء. إصدار دار المنارة ـ جدة.

الفصل الخامس

طبُّنا.. وطبُّهم

لعل من أهم ما يمكن أن يُعزى للعرب تنظيمهم لصناعة الطب بما أرسوا من قواعد للتمييز بين فروع الاختصاصات جميعها.

يقول ابن قيم الجوزية: «الطبيب.. هو الذي يختص باسم الطبائعي. وبمِزْوَدِهِ، وهو الكحّال، وبِمِبْضَعِه، وهو الجرائحي، وبموسهِ، وهو الخاتن، وبريشته، وهو الفاصد، وبمكواته، وهو الكوّاء، وبقربته، وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان».

«وهذا ابن الجزار القيرواني (٢٨٥ ـ ٣٥٠هـ = ٨٩٨ ـ ٩٥٢م) يخصص مصنفاً «لطب المشايخ»، وكتاباً «لسياسة الصبيان وتدبيرهم»، وهو من أوائل الكتب العربية التي ظهرت في هذا الاختصاص[١]، بل إن ظاهرة التمييز بين الاختصاصات تبدو جلية عنده أيضاً، إذ نشاهد لديه أول تفريق بين الطب والصيدلة[٢]، في المحل والشخص المشرف، إذ كان جعل في سقيفته غلاماً له يدعى رشيقاً وكلّفه بصرف الأدوية للمرضى، على أنه يقوم هو بنفسه بتفقد ما نفد أو ما تقادم صنعه فيحضّره من جديد.

---

(١) الحقيقة أن كتاب «خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين» لعريب بن أسعد القرطبي، هو أول كتاب عربي في طب الأطفال.

(٢) نرى هذا التفريق أيضاً بكل وضوح لدى أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣١٣ هـ في كتابه «الحاوي» وكتابه «المنصوري».

ومن الاختصاصات التي برع فيها العرب وتقدموا بها أشواطاً طب العيون أو الكحالة، ولحنين بن إسحاق كتاب رائد فيه (كتاب المسائل في العين)، ويعتبر مصدر كل الدراسات العربية في الموضوعات وما عقبها من دراسات خارج الوطن العربي، واشتمل الكتاب على تشريح العين وأسباب الأمراض وأعراضها وعلاجها. وبقيت بصمات حنين واضحة في هذا الميدان إذ ترجع إليه المصطلحات المستخدمة حتى اليوم من شبكية وقرنية وصلبة إلخ..

وكان أيضاً لكتاب «تذكرة الكحالين» لعلي بن عيسى المحل الأرفع، وقد عاصر عليٌ بن عيسى جراحٌ عبقري هو عمار بن علي الموصلي صاحب «المنتخب في علاج أمراض العين». ويصف فيه طريقة عملية لقدح الماء بالعين (الماء البيضاء) (الكتاراكت)، بواسطة مصّه بإبرة مجوفة[1].

الطب الباطني (الداخلي):

إن كل فروع فنون الشفاء تقريباً في الإسلام كانت مدينة للجهود التي بذلها حنين بن إسحاق العبادي (٨٠٩ ـ ٨٧٣م) وعصبة مترجميه أكثر من جهود أي كاتب من كتّاب القرن التاسع الميلادي، فلقد جعل حنين وزملاؤه أهم الكتابات الطبية اليونانية متوفرة باللغة العربية إما من خلال ترجمتها مباشرة من اليونانية، أو من خلال النصوص السريانية، كما أنه أرسى أساساً متيناً لتطور الطب العربي، وذلك بابتكاره علم المنهج المتميز الذي تم السير عليه وتعديله وإكماله في القرن التالي.

وفي نهاية القرن التاسع بدأ يتألق نجم جديد في الأوساط الصيدلانية الطبية العربية، ألا وهو الطبيب أبو بكر الرازي (٨٦٥ ـ ٩٢٥م) الذي أصبح أعظم طبيب ـ سريري، وباثالوجي، ومعلم طب، وفيلسوف ـ في عصره، ولا يزال العديد من أفكاره ومفاهيمه الأصيلة بخصوص الطب النفسي، وعلاقة المريض بالطبيب، وتشخيص الأمراض وطرق العلاج، ساري المفعول حتى اليوم.

---

(١) د. محمد السويسي «مناهج المستشرقين» ٢/٥٧ ـ ٥٨.

وأما كتاب الرازي «الكتاب المنصوري» فهو عبارة عن كتاب بعشرة فصول حول الطب السريري والداخلي؛ وأصبح مرجعاً أساسياً، ومعروف باللاتينية بعنوان «Liber ad Almansorem». ويبحث فيه تأثير الأغذية والعقاقير على الجسم البشري، وأهمية الحمية لحفظ الصحة، والعناية بالأم والطفل، وتأثير البيئة على الصحة، وعلم الأوبئة وعلم السموم وغيرها.

وأما خليفة الرازي المشهور «علي بن عباس المجوسي» (المتوفى عام ٩٩٤م) فقد عرض في كتابه «الملكي» «Liber Regius» مفاهيم جديدة بخصوص تأثير البيئة على الصحة، والقيمة الغذائية للأطعمة وتأثير العقاقير على الكائنات البشرية، وقد سحر أسلوبه في التصنيف الممارسين فيما بعد في كل من الشرق والغرب.

وأما «ابن بطلان» (المتوفى عام ١٠٦٨م) فقد كتب كتاب «تقويم الصحة» الذي يدور حول المحافظة على الصحة واستعادتها، وقد أكسبه شرفاً رفيعاً في الأوساط الطبية خلال القرون الوسطى، حيث ترجم إلى اللاتينية ونشر مرات عديدة.

وفي الكتابة الطبية والتعليم الطبي بالأندلس برز ابن زهر (المتوفى عام ١١٦٢م) الذي عرف باللاتينية باسم (Avenzoar). ففي كتابه الشهير «التيسير في المداواة والتدبير» وصف ابن زهر - وربما لأول مرة في تاريخ الطب - الخراجات المنصّفة في وسط الصدر، بالإضافة إلى التهاب التامور.

وأما معاصر ابن زهر وصديقه الحميم ابن رشد (١١٢٥ - ١١٩٨م) والذي اشتهر في الغرب باسم (Averroes) فقد كتب كتابين طبيين هامين: «الكليات» وقد ترجم إلى اللاتينية عام ١٢٥٥م، كما طبع بشكل مستقل في البندقية عام ١٤٨٢م. وشرحُ لقصيدة ابن سينا الطبية المشهورة بعنوان «أرجوزة في الطب» Canticum De medicina.

وكانت الأندلس مسقط رأس فيلسوف طبيب آخر هو «موسى بن ميمون» (١١٣٤ - ١٢٠٤م) الذي كتب بشكل مكثف عن الطب الداخلي[١].

---

(١) «عبقرية الحضارة العربية». فصل علوم الحياة، للدكتور سامي حمارنة ص٢٨٩ - ٢٩٦.

يقول البروفسور «جاك ريسلر»:

«وفي القرن الثاني عشر الميلادي، أنجبت قرطبة، ابن رشد الأندلسي العربي، الفيلسوف والطبيب، وبما أنه استنتج أن الشخص لا يصاب بالحصبة مرتين؛ فمن الممكن أن نقول أن ابن رشد كان أول من كوّن فكرة أساسية عن علم المناعة.

وفي إشبيلية، أنجبت أسرة ابن زهر «Avenzoar» ستة أجيال من الأطباء المشاهير، وبرز ابن زهر الثالث (١٠٩١ ـ ١١٦٢م) كواحد من أهم الأطباء العرب الممارسين، واكتشف الجرب القمليّ، وإليه يعود الفضل بوضع أول وصف لسرطان المعدة والتهاب التامور، وكتابه «التيسير» الذي وضع بناء على طلب صديقه ابن رشد، نقل إلى العبرانية واللاتينية، وأثّر تأثيراً عميقاً في الطب الأوروبي. وكان ابن زهر متحرراً من التقاليد الطبية القديمة، ويعتبر رائد الطب الاختباري.

كما أنجبت الأندلس ابن الهيثم الذي ألهم باكون وكبلر من خلال كتابه في البصريات، والذي عاش فقيراً، فكان يؤلف كتباً في الرياضيات لكي يعيش.

ومن بين العلماء المسلمين في الأندلس ظهر الصيدلاني ابن البيطار من «ملقا» (١١٩٠ ـ ١٢٤٨م) الذي زار المشرق واليونان بحثاً عن نباتات طبية.

وأورد في كتابه «الجامع» ألف وأربعمائة عقّار منها أربعمائة عقّار لم يسبق أن وصفه أحد من قبله[١]. نبتة وغذاء ودواء وصفها وصنّفها تصنيفاً دقيقاً وفقاً لخواصها وخصالها. وحتى القرن السادس عشر، ظلّ ابن البيطار يُعدّ أعظم عالم نباتي صيدلاني.

وهناك طبيب كبير مسلم آخر تميّز خلال اجتياح الطاعون الأسود لأوروبا، في منتصف القرن الرابع عشر، ففي حين كان المسيحيون يعتبرون

---

(١) «دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة» للدكتور محمد علي البار، إصدار دار المنارة، جدة.

هذا الوباء من علائم الغضب الإلهي، كان الوزير الخطيب[1] الطبيب المسلم الغرناطي، قد وضع كتاباً قال فيه بنظرية «العدوى»، وقد جرى استعمال هذا الكتاب الموضوع بطريقة علمية، بالمعنى الذي تعنيه هذه الكلمة اليوم، كأساس لأطروحة في علم الوقاية»[2].

علم التشريح عند المسلمين:

«من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله» تلك هي مقولة للقاضي الطبيب الفيلسوف ابن رشد، وهي تدحض مزاعم بعض الغربيين التي تقول: إن الأطباء المسلمين ليس لهم فضل في علم التشريح، وأنهم لم يقوموا بتشريح الحيوانات والإنسان.

يقول الدكتور أمين أسعد خير الله في كتابه «الطب العربي»:

«أنكر علماء الغرب إسهام أطباء العرب والمسلمين في التشريح قائلين إن الشريعة الإسلامية تحرّم تشريح الموتى، ولكن من يبحث في المخطوطات الطبية العربية يجد أنهم أسهموا مساهمة عظيمة في تقديم المعارف في التشريح بطرق مختلفة»[3].

ويدل على ذلك ما ذكره الأطباء المسلمون من تشريح الأعضاء وتفصيلهم في ذلك تفصيلاً دقيقاً.. بل وقد يصرّحون بأنهم مارسوا

---

(١) لسان الدين محمد بن عبدالله السلماني المعروف بابن الوزير، ذو الوزارتين، الغرناطي الأندلسي، المتوفى سنة ٧٧٦هـ. له كتاب في الوباء، وكتاب آخر في الطاعون اسمه «مقنعة السائل عن المرض الهائل» وهو طاعون عام ٧٤٩هـ، وقد سبق الغرناطي عدد كبير منهم أحمد بن إبراهيم الجزار القيرواني المتوفى ٣٩٥هـ، وله رسالة «نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر»، وأبو عيسى الجرجاني المتوفى سنة ٤٠١هـ، وله رسالة في الوباء. انظر كتاب «الطاعون» للسيوطي، تحقيق وشرح ودراسة الدكتور محمد علي البار، إصدار دار القلم ـ دمشق.

(٢) «الحضارة العربية» للبروفسور جاك ريسلر، تعريب د. خليل أحمد خليل ١٩٩٣ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) «الطب العربي» للدكتور أمين أسعد خير الله.

التشريح، أو أن التشريح يكذّب ما قاله جالينوس، كما فعل ابن النفيس في شرح كتاب التشريح لابن سينا، حيث ذكر أخطاء جالينوس وابن سينا في تشريح القلب والدورة الدموية الصغرى.

ويؤكد «الزهراوي» على أهمية التشريح وخاصة بالنسبة للجرّاح فيقول:

«إن من لم يدرس التشريح فلا يحق له أن يمارس الجراحة.. ذلك لأنه قد يقوم بعمل فيه تهلكة للمريض نتيجة جهله للتشريح».

وقد أفرد ابن سينا في كتابه الموسوعي «القانون» ٥٣ صفحة (من ص١٩ ـ إلى ص٧٢) من الجزء الأول لتشريح الأعضاء، حيث تحدّث عن تشريح العظام بتفصيل عجيب، يدل على أنه درس الهيكل العظمي دراسة وافية، ثم ذكر المفاصل وشرح العضلات، وجعلها في ثلاثين فصلاً مما يدل دلالة واضحة على أنه شرّح الجسم الإنساني وعرف العضلات عضلة عضلة، ولا يتم ذلك أبداً إلا بممارسة التشريح الدقيق الماهر. ثم تحدث عن الأعصاب والشرايين وتشريح سائر الأعضاء.

ويعتبر ابن النفيس أول من أفرد التشريح بكتاب خاص مستقل، وقد جمع فيه ما كتبه ابن سينا في كتاب «القانون» مفرّقاً.

وابن النفيس يعتبر بحق مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يكتشفها وليم هارفي، كما حققه الدكتور محيي الدين القطاوي في رسالة الدكتوراه التي حصل عليها من برلين، والدكتور بول غليونجي، والدكتورة زيغرد هونكه. وكتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس حققه د. سليمان قطاية وراجعه د. بول غليونجي، ونشرته الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٨. أما تحقيق الدكتور محيي الدين القطاوي باللغة الألمانية والذي وضعه في بداية القرن فغير متوفر.

وقد قام ابن النفيس بتشريح القلب تشريحاً دقيقاً وردّ على ابن سينا ومن سبقه بقوله: «إن في القلب ثلاثة بطون» وقال: «هذا الكلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط. والتشريح يكذب ما قالوه»[1].

---

(١) «علم التشريح عند المسلمين» للأستاذ الدكتور محمد علي البار ص١٥ ـ ١٩.

أما بول غليونجي فيذكر في كتابه «ابن النفيس» «أن ابن النفيس وصف علم التشريح بأنه فن لا علم، حيث إن الفن يُكتسب بالممارسة بينما العلم يُكتسب بالدرس. وقد شرح ابن النفيس بكل تفصيل تشريح العظام والرئة والشرايين والقلب وغيرها من أجزاء جسم الإنسان بدرجة دقيقة لا يستطيع طبيب أن يعملها إلا إذا كانت لديه خبرة جيدة في التشريح. والحقيقة إن أول عملية تشريح في أوروبا أجريت في باريس سنة ١٤٧٨م. أي نحو مائتي سنة بعد وفاة ابن النفيس»[١].

وقد قام الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي في كتابه «تاريخ الطب وآدابه وأعلامه» بجمع الكثير من الحقائق العلمية في حقل التشريح والتي وصل إليها الأطباء المسلمون الأوائل فوجدوا الحقائق التالية:

١ ـ الأنف يساعد على النطق وإخراج الحروف، ومَعْبَرٌ للهواء نحو الرئة.

٢ ـ يتحول الطعام إلى سائل سميك يسمى «كيلوساً» بعد خروجه من المعدة إلى الأمعاء. وهذا دليل على أنهم فتحوا بطون الحيوانات أثناء حياتها وشاهدوا صفات الكيلوس.

٣ ـ وصفوا الاعوجاجات الموجودة في باطن الأذن، وعرفوا أن ذلك يمنع دخول الحشرات، ويساعد على انكسار الهواء المندفع حتى لا يضر طبلة الأذن.

٤ ـ تتركب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات.

٥ ـ اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى.

وهذه المعلومات التشريحية صحيحة علمياً إذا ما قارناها بما لدينا في الطب الحديث.

---

(١) ابن النفيس من «سلسلة أعلام العرب» للدكتور بول غليونجي ص١١٢ ـ ١١٤.

الجراحة:

يقول «جوستاف لوبون»:

«وتدين الجراحة للعرب بأساليب تقدمية أساسية في فن الجراحة، ولقد استُخدِمت مؤلفاتهم في هذا الميدان متوناً أساسية للتعليم في كليات أوروبا الطبية حتى عهد قريب.

عرفوا في القرن الحادي عشر علاج غشاوة العين، كما عرفوا عمليات تفتيت حصاة المثانة، وعلاج النزيف بصب الماء البارد، وعرفوا الأدوية الكاوية، وعمليات الخرم والكي بالنار.. إلخ.

كما أن استعمال المخدر ذلك الكشف الأساسي الذي ظُنَّ أنه من كشوف العصر الحاضر، لم يكن خافياً عليهم؛ فكانوا يوصون في الواقع قبل العمليات المؤلمة باستعمال الزوان لتنويم المريض حتى يفقد الوعي والحواس[1].

وتقول د. «زيغرد هونكه»:

«فهذا الفرع بالذات يدين للعرب بتقدمه وصعوده المفاجىء من مرتبة المهن «الحقيرة» الدنسة التي تكاد تكون بمنزلة مهنة الجلادين والجزارين، إلى القمة التي عرفها على أيدي العرب؛ فإلى العرب وحدهم يعود فضل رفع هذا الفن العظيم إلى المستوى الذي يستحقه، وإليهم وحدهم يرجع فضل بقاء هذا العلم..»[2].

وتقول أيضاً: «لقد اهتم العرب بالجراحة فقاموا بعمليات جراحية كثيرة في البطن والمجاري البولية، ونجحوا في شق القصبة الهوائية وإيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، وهو إنجاز علمي ادَّعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي أمبرواز باري Ambroise Pare عام ١٥٥٢م، في حين أن الطبيب العربي أبا القاسم الزهراوي من قرطبة والذي عاش ما بين ٣٢٤ ـ ٤٠٣هـ قد حققه قبله بستمائة سنة. وقد ذكر ذلك في مؤلفه المعروف «التصريف لمن عجز عن التأليف».

---

(١) «حضارة العرب» لجوستاف لوبون، ص٧٣٣.

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٣١٠.

وفي القرن التاسع ترجم حنين أعمال جالينوس في التشريح والجراحة، كما أن الرازي كرّس فصولاً مطوّلة لهذا الفن في موسوعتيه الطبيتين «المنصوري» و«الحاوي».

وكان الرازي يذكر العمليات في مؤلفاته، ويترك تنفيذها للجراحين[1].

ويعتبر الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة، وقفى على أثره عليُّ بن العباس[2] (المتوفى ٩٩٤م) الذي يعتبر أول منظّر عظيم في التشريح والفيزيولوجيا في تاريخ الطب العربي. كما كان كتابه «الملكي» (أو كامل الصناعة في الطب) أول عمل إسلامي يعالج الجراحة بشكل مفصّل. وكان أول من استعمل المرقاة لمنع النزيف الشرياني[3]، وشرح عملية الشق العجاني على الحصاة، وتكلم عن مداواة السرطان، وداء الخنازير (وهي قروح صلبة في الرقبة)، وورم اللوزتين، وقطع الأطراف الفاسدة.

ولكن أعظم الإنجازات في جراحة القرون الوسطى تعزى للزهراوي (٩٤٠ ـ ١٠١٣م) المراكشي الإسباني، الذي يعالج قسم هام من موسوعته الطبية «التصريف» القبالة وطب الأطفال والتوليد، بالإضافة إلى تشريح جسم الإنسان بشكل عام. وفي الفصل الأخير الذي كُرّس للجراحة، شرح فن الكي ومعالجة الحروق واستخراج السهام وصحة الفم وتجبير العظام.

واستعمل الزهراوي المطهرات في معالجة الجروح والخدوش الجلدية، وابتكر الخيوط الطبية من أمعاء الحيوانات والحرير والصوف وغيرها. كما طوّر تقنيات لتوسيع المجاري البولية، ولاكتشاف تجاويف الجسد جراحياً. ولقد كان يستعمل في عملياته الجراحية حوالي مائتي أداة جراحية صممها بنفسه، وأورد رسوماً لها في كتاباته.

---

(١) «الطب عند العرب» د. حنيفة الخطيب، ص٣٠.

(٢) عليُّ بن العباس: حرّف اسمه الغربيون حتى جعلوه Haly abbas واسمه الحقيقي عليّ بن العباس المجوسي، لأن أباه أو جدّه كان مجوسياً. أما هو فكان مسلماً، ولذلك لا داعي لإقرار نسبته للمجوسية.

(٣) «عبقرية الحضارة الإسلامية» ص٣٠١.

وإن أمثال هذه الأدوات، مع بعض التعديلات، قد استُعملت فيما بعد من قبَل عدة جراحين في العالم المسيحي علاوة على جرّاحي الديار الإسلامية[1].

وحسبك شاهداً على رقيّ الجراحة العربية ما قاله «لانغرانك» في أواخر القرن الثالث عشر، بعد أن اطلع على ترجمة تأليف الزهراوي في إيطاليا ورجع إلى باريس، فقال عن جرّاحي باريس إنهم جهلاء، ولا يكاد يوجد جرّاح واحد عالِم بصنعته[2].

يقول «جون درابر» في كتابه «تطور أوروبا الفكري»:

«ولم يكن أبو القاسم الزهراوي يحجم عن إجراء أية عملية جراحية أو ولادية. ولقد ترك لنا وصوفاً وافية لأدوات الجراحة المستعمَلة في عصره، وعن طريقه علمنا أنه في العمليات النسائية التي يدخل فيها عنصر الحياء، كان متوفراً لديهم نساء خبيرات في هذه الشؤون». ثم يتساءل «جون درابر» فيقول: «أي فارق بعيد بين كل هذا وبين الأحوال التي كانت سائدة في أوروبا حينئذٍ، **كان الفلاح المسيحي إذا أصيب بحادثة أو فاجأته الحمى، إنما يسرع إلى ضريح أقرب وليّ من الأولياء انتظاراً لحدوث معجزة، أما العربي الإسباني فكان يعتمد على تعليمات طبيبه ومشرط وتضميد جرّاحه**»[3].

ويذكر مايرهوف في كتابه «تراث الإسلام» «أن كتاب أبي القاسم الزهراوي «التصريف» وخاصة الفصل الأخير منه والذي اشتمل على صور لآلات الجراحة قد وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية»[4]. وقد قام الدكتور عبدالعزيز الناصر والدكتور علي التويجري بتحقيق الفصل الأخير من كتاب التصريف ونشره، وقد سبقهما الدكتور M.S.Spink والدكتور G.L.Lewis حيث قاما بنشر المقالة الثلاثين من

---

(١) «عبقرية الحضارة الإسلامية» ص٣٠١.

(٢) «الطب عند العرب» د. أحمد شوكت الشطي، ص١٥١.

(٣) «تطور أوروبا الفكري» ج٢ ص٣٩ ـ ٤٠.

(٤) «تراث الإسلام» ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

كتاب التصريف، وهو قسم الجراحة، ونشرا النص العربي ويقابله النص المترجم باللغة الإنجليزية مع صور للآلات الجراحية التي استخدمها الزهراوي، ونشرت الكتاب مطبعة جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس) تحت عنـــــوان University of California Press, USA, 1973 ALBUCASIS: On Surgery- Instruments.

وقد وصف أبو القاسم على الأخص عملية تفتيت حصاة المثانة، تلك العملية التي وصفت بغير حق ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ على أنها من مآثر العصر الحديث. ولم تعرف كتب الزهراوي في أوروبا إلا في القرن الخامس عشر، وكانت المصدر المشترك الذي نهل منه وانكب عليه جميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر، حيث طبعت أول ترجمة لاتينية لكتاب أبي القاسم الزهراوي سنة ١٤٩٧م، أما الطبعة الأخيرة فكانت في سنة ١٨٦١م.

علم التخدير:

يؤكد المؤرخون على سبْق المسلمين الأوائل في علم التخدير، فقد كانوا أول من استعمل المخدر في الجراحة.

ولم ينسَ المسلمون أن أول خلق الله تعالى كان آدم عليه السلام، وعندما أراد الله تعالى أن يخلق منه حواء، أخلدهُ سبحانه إلى النوم، فاستيقظ فإذا بجانبه حواء، خُلقتْ من ضلعه الأيسر. فكان أول تفكير المسلمين في النوم كأداة للتخدير.

ومن ثم بدأ المسلمون يتفننون في استحداث أساليب مختلفة كي ينام المريض لعمل جراحة معينة، فتعلّموا أولاً من الصينيين استعمال الإبر الذهبية أو الفضية على العِقَد العصبية، ثم استعملوا نبات حبق الراعي بعد حرقه للتخدير. وجرّبوا حبس الدم عن المناطق المختلفة من الجسم، باستعمال الضغط الشرياني أو الوريدي لتخدير المكان.

ويؤكد الباحثون أن التخدير أصله عربي، وإلا فكيف كان يمكن لعالِم

وجرّاح مسلم كالزهراوي مثلاً، أن يقوم بعمليات استخراج الحصى من الكلى أو الحالب مستخدماً المشرط والخياطة دونما تخدير للمريض؟

كان العرب يستخدمون قطعة من القماش أو الكتان لتمتص المناقيع، ويضعونها على أنف المريض قبل بدء الجراحة، فكانوا أول من استخدم الاستنشاق لتخدير المريض. فاستخدام «الإسفنجة المخدرة» فن عربي أصيل.

واستخدم المسلمون في التخدير الحشيش والأفيون بنِسَب مختلفة، ونبات ست الحسن أو البلادونا، والشوكران الذي تجرّعه سقراط قبل موته بكمية كبيرة، فالقليل منه يحدث تخديراً وتنميلاً في الجسم.

والأعجب من هذا أنهم أول من عرف المراهم كمخدرات قبل الجراحة. كما يذكر الباحث الأستاذ الدكتور طه الجاسر أن العرب عرفوا الايثير كمخدر، وزيت الزاج (حمض الكبريتيك) لعمل المراهم والمخدرات[1].

ويشير Cyril Elgood إلى «أن أشد المواد المخدرة قوة عند العرب كان الأفيون، ودونه تأثيراً البيروح، والخشخاش، والشوكران، والبنج، وست الحسن، وبزر الخس، والثلج والماء البارد»[2].

وتقول الدكتورة «زيغرد هونكه»:

«وللعرب على علم الطب فضل آخر في غاية الأهمية، ونعني به استخدام المُرقِّد (المخدر) العام في العمليات الجراحية، وكم كان التخدير فريداً في نوعه، صادقاً في مفعوله، رحيماً بمن يتناوله، وهو يختلف كل الاختلاف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود واليونان والرومان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم، وليس لرفع آلام العمليات عنهم.

---

(١) «علم التخدير في الإسلام» أ.د. ماهر خليل، مجلة الوعي الإسلامي، يونيو ١٩٩٥.

(٢) Elgood c: Medical History of Persia. p.281.

وينسب هذا الكشف العلمي مرة أخرى إلى طبيب إيطالي أولاً وإلى بعض الإسكندرانيين ثانياً، في حين أن **الحقيقة تقول والتاريخ يشهد أن** فن استعمال الإسفنجة المخدرة فن عربي بحت لم يعرف من قبلهم. وكانت توضع هذه الإسفنجة المخدرة مع عصير من الحشيش والأفيون والزؤان وست الحسن (هيوسيامين) ثم تجفف في الشمس. ولدى الاستعمال ترطب ثانية، وتوضع على أنف المريض، فتمتص الأنسجة المخاطية المواد المخدرة، ويركن المريض إلى نوم عميق يحرره من أوجاع العملية الجراحية»[1].

طب العيون:

في سهول الشرق الأوسط الساخنة الغبراء كانت تنتشر الأمراض المستوطنة للعين مثل الرمد والتراخوما، مما يعلل التقدم الفذ الذي قام به الأطباء المسلمون في حقل طب العيون. فقد بلغ الأطباء المسلمون مستوى من الكفاءة في علم طب العيون ما بلغه قط الحكماء الأقدمون. وكانت مساهماتهم الكتابية موضع الإعجاب والنسخ في أوروبا، وما ظهر في الكتابات ما يسمو عليها حتى جاء القرن السابع عشر.

ولربما كان حنين بن إسحاق أول من كتب من بين الكتّاب العرب كتيّباً منهجياً مزوداً بالرسوم عن طب العيون، ففي كتاب «عشر مقالات» بحث حنين تشريح العين والدماغ والأعصاب البصرية ووظيفة العين وأمراضها وعلاجها.

ولربما كان الرازي الذي كتب في أوائل القرن العاشر أول من وصف الأفعال المنعكسة البؤبؤية.

وقد بلغ التقدم العربي في طب العيون ذروته حوالي العام ١٠٠٠م في عمل «عليّ بن عيسى» - وهو طبيب عيون من بغداد - الذي كان كتابه

---

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٧٩ - ٢٨٠.

«ذخيرة الكحالين» يحتوي على خلاصة مسهبة لكل منجزات الماضي. كما أن معاصره «عمار بن علي الموصلي» كان أول من طرح تقنية إزالة الساد (الماء البيضاء في العين)، عن طريق المص، كي يتحاشى كارثة اختلاط المائع الزجاجي، إذ ابتكر لهذا الغرض واستعمل إبرة جوفاء، وهي تقنية تمّ إحياؤها عام ١٨٦٤م، على يد الطبيب الفرنسي (بلانشي).

وفي كتاب «المرشد» الذي كتبه محمد بن قسوم الغافقي من الأندلس، زوّد الغافقي كتابه برسوم توضيحية شيّقة عن الأدوات الجراحية التي كان يستعملها أثناء قيامه بالعمليات العينية.

أما خليفة بن أبي المحاسن من حلب، فقد كتب عام ١٢٥٦م مقدمة مفيدة عن جراحة العين وأوصافاً للعمليات العينية.

كما يتجلى ذلك البعث الطبي في كتاب «نور العيون» الذي بدأ بكتابته طبيب العيون صلاح الدين بن يوسف من حماة، وأكمل كتابته عام ١٢٩٦م.

لقد كان كل من أبي المحاسن وأبي يوسف طبيباً سورياً.

وآخر طبيب عربي عظيم في طب العيون كان ابن الأكفاني الشاذلي من مصر الذي مات بسبب الطاعون الأسود عام ١٣٤٨م، والذي كان عمله «كشوف الرائين في أحوال العين» إيضاحاً موجزاً لكل المعلومات المتوفرة عن العين[١].

ومهّد ابن الهيثم لاستعمال العدسات في إصلاح عيوب العين، وهو أول من كتب في أقسام العين، وأول من رسمها بوضوح تام، ووضع أسماء لبعض أقسام العين. ومن تلك الأسماء: الشبكيّة Retina والقرنيّة Cornea والسائل المائي Aqueous Humour والسائل الزجاجي Vitreous Humour[٢].

وقد برع الأطباء العرب في جراحة العين، وشقوا الجفن من المأق

---

(١) «عبقرية الحضارة العربية» فصل علوم الحياة للدكتور سامي حمارنة، ص٢٩٨ ـ ٣٠٠ بتصرف.

(٢) «تاريخ الطب العراقي» عبدالحميد العلوجي، ص٥٨.

إلى الماق[1]، وللرازي تصنيف بعنوان «مقالة في علاج العين بالحديد»[2].

ويقول البروفسور «جاك ريسلر» في كتابه «حضارة العرب»:

«إن طب العيون ابتكار إسلامي، وقد ظلت شهرة أطباء العيون العرب، وسمعة علمهم المعمَّق على صعيد التقنيات الإجرائية، بلا نظير لآماد طويلة، ولم يتم تخطي «ذخيرة الكحالين» لعليّ بن عيسى إلا في القرن التاسع عشر»[3].

علم الصيدلة:

أما علم الصيدلة، فكما يقول «جوستاف لوبون»، فهو اختراع عربي أصيل[4] ولقد بدأ العرب تطبيق الكيمياء على الطب نظرياً وعملياً، ومكنتهم المعرفة التي اكتسبوها من عالم النبات، أن يضيفوا شروحاً كثيرة إلى الألفي نبات الموجودة في كتاب النبات لديسقوريدوس، وأن يضمّنوا كتبهم في العقاقير كثيراً من النباتات الطبية التي كان يجهلها اليونان تماماً[5].

وأنشأ المسلمون الصيدليات، ويقال إنهم أول من أسس مدرسة للصيدلة، كما كان لهم قصب السبق في عدة تراكيب كيماوية كالكحول، وماء الفضة، وزيت الزاج (الحامض الكبريتي)، واخترعوا التقطير وغير ذلك.

يقول «مايرهوف»:

«إن علم الصيدلة العربي استمر في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر».

---

(١) «تذكرة الكحّالين» لعلي بن عيسى، ص١٨٣.
(٢) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص٤٢٧.
(٣) «حضارة العرب» للبروفسور جاك ريسلر ص٢٠٠.
(٤) جوستاف لوبون «حضارة العرب» ص٥١٣.
(٥) سيديو «تاريخ العرب العام» ٣٨٢.

وقد جعل العرب مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب في بغداد ومصر والأندلس.

أما في أوروبا فقد ظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب لأول مرة في أواخر القرن الحادي عشر عندما أمر الإمبراطور «فريدريك الثاني» بألمانيا بعدم ممارسة الطب أو الصيدلة إلا بإذن خاص.

وقد أراد «مجمع الصيدلة في إنجلترا» أن يختار أعظم اثنين تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل، فوقع اختياره على «جالينوس» اليوناني، و«ابن سينا» الطبيب المسلم الكبير.

الصيدليات الإسلامية:

للمسلمين فضل كبير على فن الصيدلة، ولعلهم أول من اعترف بالصيدلة كمهنة وعلم مستقل بذاته. وكان الصيادلة لا يمارسون عملاً في المستشفيات إلا إذا كان معروفاً عنهم الأمانة والكفاءة، ويعطون التراخيص، بعد تقييد أسمائهم في سجل خاص. كما كان لكل صيدلية (أمين) يتسلّم ما بها ويحافظ عليها.

وقد ترك لنا عدد من الأطباء المسلمين وصيادلتهم كتباً رسموا فيها صوراً لصيدلياتهم العربية الخاصة في عواصم حضارتهم، وقد ارتدى الصيدلاني ثياباً بيضاء، ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء، ومن ورائه «الأرفف» الممتلئة بالأدوية والقوارير.

وقد خلَّفَ لنا المسلمون الكثير من كتب الصيدلة مثل «تذكرة ابن داود» و«منهاج الدكان» و«دستور الأعيان» وغيرها.

وكتب **داود الكوهين** المعروف بالعطار الهاروني الإسرائيلي في **«منهاج الدكان»** نصائح قيّمة للصيدلي فقال:

«والآن ـ فاحرص يا أخي أن تكون في نفسك أولاً تقوى الله تعالى، واعلم بأنه لا ذنب أعظم من ظلم الناس، وأخذ أموالهم بغير حق، لا سيما

من كان ضعيفاً، ومسكيناً، كمثل مريض قد أشرفت نفسه على الهلاك، فيستدعي طبيباً حاذقاً، فيكتب له ورقة تطمئن بها جوارحه، على أنها يكون بها برؤه، مع عناية الله وإذنه، واتكل فيها على الصيدلاني، فقد رجع الأمر إليك، فلا إثم إن فرّطت فيما عليك، فهل تستحسن أنت لو كنتَ مريضاً أن تفرّط في حقك، وأنت تعلم أن هذا التفريط مؤدٌ إلى إتلاف المال والروح، وأنت تعلم قدر العقاب من الله تعالى على هذين الذنبين. . .»[1].

وقد حددت الدولة أثمان العقاقير، ووضعت رقابة شديدة، فإذا خالف الصيدلي أو «الرقيب» الذي يقوم بالتفتيش عليه تلك القوانين، وارتكب أي غش في أنواع العقاقير عوقب عقوبة قاسية.

صيدلية عربية

صيدلية عربية كما جاءت مخطوطة بالعربية لابن سينا

(١) منهاج الدكان ودستور الأعيان لداود الكوهين الإسرائيلي، الناشر مكتبة الجمهورية المصرية، القاهرة. ص٦ـ٧.

الفَصْلُ السَّادِسُ

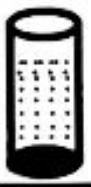

بوابات الشرق على الغرب

سارت العلوم العربية من الشرق إلى الغرب بعدة طرق أهمها:

١ ـ الحروب الصليبية:

كانت غزوات الصليبيين للشرق العربي ابتغاء تخليص بيت المقدس من العرب كما زعموا، عاملاً في نقل العلوم إلى أوروبا.

وقد استمرت هذه الحروب بين ١٠٩٥ ـ ١٢٩١م، وعادت القدس سنة ١١٨٧ للمسلمين بعد معركة حطين.

وتعرّف الغربيون خلال هذه المدة على نقائصهم، فذهلوا بما شاهدوا، فتعلّموا اللغة العربية، وعاشروا أهلها، ونبغ منهم علماء أحبوا العربية وتتلمذوا على الأساتذة العرب، ومن بين هؤلاء «أدلارد باث» الذي اشتهر نشاطه العلمي بين ١١١٥ ـ ١١٤٢م. عاش في الشرق سبع سنوات، وألّف كتباً عديدة يشعر الباحث فيها بالروح العلمية العربية، كما ترجم عدداً من الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية.

وكان من بين المترجمين «ستيفانو دوبيزا» الذي عاش في أنطاكية نحو سنة ١١٢٧م.

٢ ـ صقلية وإيطاليا:

كانت صقلية تعيش التأخر والجهل قبل أن يفتحها العرب والمسلمون. وقد تم فتحها أيام بني الأغلب في أوائل القرن الثالث الهجري حوالي سنة ٨٧٧م بقيادة أسد بن الفرات الذي قال في جماعته الشاعر ابن حمديس:

ومدرسة أبناؤها فقهاؤها ... فمن عالمٍ منهم ومن متعلّم
ضراغم في الجيش اللهام وإنما ... فوارسهم في الحرب من كل ضيغم

وهكذا فتح العرب صقلية ونزلوها، ومدّنوها.

وقد أنجبت صقلية عدداً من الشعراء عرف منهم نيف ومائة وسبعون شاعراً. ونبغ في الطب من الصقليين أطباء نطاسيون منهم:

- ابن جلجل الصقليّ: صاحب كتاب «تاريخ الأطباء والحكماء».
- أبو سعيد بن إبراهيم المغربي الصقلّي: مؤلف كتاب «المنهج في التداوي من صفوف الأمراض والتداوي».
- أحمد بن عبدالسلام الشريف الصقلّي: صاحب كتاب «الأطباء في الأمراض من الفرق إلى القدم».

كانت الإدارة العربية المسلمة في صقلية كثيرة التسامح، شأنها في جميع الفتوحات العربية المماثلة، وأدى ذلك إلى تمتع صقلية بثقافة ممتازة خاصة، قوامها اللغات اللاتينية واليونانية والعربية، أي لغات العالم العلمية في ذلك الحين، فاتسعت العلوم وازدهرت الفنون[1].

وأصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات، وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة.

وقد نبغ كثير من المترجمين في صقلية منهم فرج بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم «فراجوت» أو «فراريوس» الذي ترجم كتاب

---

(١) «العرب والطب» ص١١٥.

«الحاوي» للرازي، وكتاب «تقويم الأبدان» لابن جزلة البغدادي. وألّف «سكوت» أكثر كتبه في صقلية[1].

مَن هو قسطنطين الإفريقي؟

أوردت الدكتورة «زيغرد هونكه» في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» قصة قسطنطين الإفريقي فقالت:

«في قرطاجة، وفي عام ١٠٢٠م أبصر النور طفل نجهل عنه الشيء الكثير، نجهل: أمسيحياً كان أم مسلماً؟ حراً كان أم عبداً؟ بل ونجهل حتى اسمه الحقيقي، ولكن التاريخ يقول لنا أنه دخل المسيحية فيما بعد وسمى نفسه قسطنطين. نما هذا الطفل تحت سماء الشرق الذي زرع في نفسه حب العلم والأسفار، فأمضى نصف عمره بترحال في أرجاء الأرض دائم، فاحتك بالطب العربي احتكاكاً مباشراً وسمع عن أساطينه، والتقى بالعديد من الأطباء مثل ابن بطلان وابن رضوان وغيرهما. كان أيضاً تاجراً طموحاً يرى العالم في دكانه والعكس صحيح.

وعندما بلغ الأربعين زار صقلية العربية لأول مرة، واتصل بالقصر، وتحدّث إلى شقيق أمير سالرنو الذي كان طبيباً، عن الطب والعقاقير. فقسطنطين كان تاجر أدوية، وحدّثه قسطنطين عما سمعه عن معجزات الطب العربي وعن عقاقيره، والفرق بين طب الفرنجة وطب الشرق، والمسافة الشاسعة بينهما، ووعد محدّثه وأصحابه بأن يزوّدهم في سفراته القادمة بكنوز من الطب العربي بدلاً من عقاقيره وحدها.

فعاد إلى مصر، ودخل مدارس الطب ليمضي فيها السنوات الطوال ينهل من مناهل العلم الشرقي. وبعد سنين طوال عاد قسطنطين مرة ثانية إلى سالرنو، وتحت إبطه رزمة من الكتب. وتعلّم لغة البلاد. ومن ثم أكبّ على العمل، فكان يخرج المخطوطة تلو المخطوطة، محدثة بين القوم ضجة

---

(١) «الطب عند العرب والمسلمين» د. محمود الحاج قاسم، ص٣٨٦.

عظيمة، فتتلقفها أيديهم بإعجاب كبير.

وكبر مقامه في البلاد، وأصبح يشار إليه بالبنان، واعتبر ذاك الرجل العظيم الذي لم تعرف سالرنو مثيلاً له، في دفق إنتاجه وروعة كتبه. ورغم أنها صيغت بلغة لاتينية ركيكة إلا أنها كانت مليئة بالعلوم الطبية، فأخرج كتاباً عن أمراض العيون، وآخر في علم الحمية والحمى وغير ذلك. أما مؤلفه الأساسي «مجمل الفن» في الطب فقد جمع فيه كل معارف العصر الطبية. أجل، أي عبقرية فذة خلاّقة توافرت لدى هذا الرجل!!. وبقيت شهرته مطبقة الآفاق مدة أربعين سنة حتى ظهر بعدها فجأة أن هذا الرجل الذي أتى من قرطاجة، لم يكن عبقرياً بأية حال من الأحوال بل كان تاجراً غشاشاً عرف كيف يغلف بضاعة قديمة بغلاف جديد بهر الأنظار. وما كان لينبلج هذا النور الفضّاح لولا الحملات الصليبية الأولى التي أخرجت للوجود طبقة جديدة من المختصين بأمور الشرق ولغته. ففي اللحظة التي قرر فيها طبيب أنطاكية «أسطفان البيزاوي» أن ينقل بعضاً من كنوز العرب في علم الطب للمسيحية الأوروبية. في هذه اللحظة بالذات دخلت شهرة قسطنطين منطقة الخطر!

فعندما ابتدأ أسطفان عام ١١٢٧م بنقل كتاب «علم الشفاء الكامل» المعروف بالكتاب الملكي لـ«علي بن العباس» إلى اللغة اللاتينية استبدَّ به العجب، وشعر أنه أمام أشياء يعرفها من قبل. تُرىٰ ألم يقرأها من قبل؟ ألم يُمضِ من عمره سنوات ثلاثاً في دراسة أعمال الأستاذ «قسطنطين» في سالرنو؟ ألم يسهر الليالي الطوال في درس ما جاء فيها وما يراه الآن في كتاب ابن العباس كاملاً منسقاً؟ إذن، ويا للعجب، فإن ما نسبه قسطنطين لنفسه، لم يكن من بنات أفكاره، ولا من عصير دماغه، بل كان نقلاً عن عالِم عربي.

وأيقن «أسطفان» أنه أمام سارق كبير، فشنَّ هجوماً عنيفاً مقذعاً على قسطنطين، ولم تكن هذه إلا البداية.

ففي صقلية، وجد المترجم «دمتريوس» في كتاب قسطنطين عن

البصريات أنه مأخوذ من كتاب «حنين» في علم أمراض العيون، ووجد في مخطوطة قسطنطين الهامة (Viaticum) أنها من كتاب «زاد المسافر» لابن الجزار. ورأى في كتبه عن علم الحمية والبول والحمى، ترجمات بتصرف لمخطوطات إسحق الإسرائيلي.

أما «جراحة» قسطنطين فهي في الواقع من صنع علي بن العباس، و«كيمياؤه» مسروقة من الرازي. ولم تكن هناك إلا بضع مخطوطات لأبقراط وجالينوس لم يعبث بها. أما المخطوطات اليونانية فلم يغير من أسماء مؤلفيها.

فكان أن سحق كل اسم عربي في كل المخطوطات ونسَبَها إلى نفسه، خوفاً من أن يقطف ثمار عمله سارق آخر غريب على حد قوله، وهو في عمله هذا كاللص الداهية، الذي يتعالى صراخه بأن «أمسكوا السارق»، في حين يملأ هو خلسةً عبُه وجيوبه.

ولكن مؤرخ الطب الفرنسي دارمبارغ أبى إلا أن يقول كلمة شديدة اللهجة في حق قسطنطين، وعادلة في آن واحد، فقد وجّه انتقاداً لاذعاً مُرّاً إليه لسرقاته، ولكنه شعر في قرارة نفسه، أن قسطنطين هذا يستحق التكريم لفضله العظيم بنقل آثار العرب إلى أوروبا، وفي إيقاظ علم الطب الأوروبي من سكونه الذي كان يشبه الموت، فكان أن اقترح إقامة نصب تذكاري له على قمة الجبال المشرفة على سالرنو»[1].

ولا بد من الإشارة هنا إلى وجهة نظر أخرى في قضية قسطنطين، فقد ذكر الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي في كتابه «العرب والطب» «أن جنسية قسطنطين كانت موضع بحث ومناقشة مدة طويلة، وقد اتفق أخيراً على عروبته وإسلامه جميع الباحثين، ومنهم «مايرهوف» الحجة في هذا الموضوع. ويرى بعضهم أن السبب في كتمان أسماء المؤلفين الأصليين من قبل قسطنطين يعود إلى أن الطب الإكليريكي الشائع في أوروبا حينها، كان

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٩٣ ـ ٢٩٨ بتصرف.

يقاوم الإسلام والعلم العربي، ويحول دون نشرهما، مما حمل قسطنطين الإفريقي على كتم دينه الحقيقي، وإخفاء مصادر تآليفه، حتى لا يعاكس في نشره علوم العرب. وتأكيداً لهذا الرأي يرى المحقق سودهوف أن المدنية العربية اشتدت مناهضتها في أوروبا أثناء الحروب الصليبية، حتى شملت الأوساط العلمية والثقافية، فكان لا بد لقسطنطين من أن يكتم دينه الحقيقي، وأن لا يعلن عن مصادر تآليفه[1].

وقد كان لبعض المدارس والجامعات الغربية التي تأثرت بالثقافة العربية شأن عظيم في النهضة الطبية في أوروبا. ومن هذه المدارس:

١ ـ مدرسة سالرنو:

اتفق المؤرخون على أنه بينما كان التدجيل في الطب سائداً في أوروبا اللاتينية كانت سالرنو البلد الإيطالي الجميل مركزاً طبياً وعلمياً، وكان فيها مدرسة للطب. أما سبب النهضة فيها فهو قربها من صقلية، أحد أطراف العالم العربي آنذاك، وقد أحكم العرب الصلات العلمية مع الطليان، فتم بذلك التقارب بين المدنيتين العربية واللاتينية[2].

تقول الدكتورة «زيغرد هونكه»:

«لقد أصبحت سالرنو في أواخر القرن الحادي عشر مدينة العلم الوحيدة في وسط الصحراء الأوروبية التي يتعلل بها المرضى المسيحيون. أما أصل سالرنو فيقال إن أربعة رجال قد أسسوها، وهم: يوناني ولاتيني ويهودي وعربي، أما العربي فيدعى (Adala)، والأرجح أن ذلك الاسم ترجمة للاسم العربي (عبدالله)[3].

وكانت كتب قسطنطين الإفريقي عاملاً في دفع مدرسة سالرنو إلى البحث عن الطب العربي والاقتباس منه اقتباساً واسع النطاق، حتى عادت

---

(١) «العرب والطب»، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) «المصدر السابق» ص١١٨.

(٣) «شمس العرب تسطع على الغرب» ص٢٩٢.

بفضل ما اقتبسته من الطب العربي زعيمة مدارس الطب في أوروبا.

وقد ساعد قسطنطين في الترجمة يوحنا الفاسي العربي الأصل، وقد عاش كقسطنطين في سالرنو ثم ترهّب في دير مونتي كاسينو، وربما تتلمذ على قسطنطين. وقد قدر مجموع الكتب التي ترجمها قسطنطين ومدرسته بنحو أربعين كتاباً، وكان لترجمة قسطنطين «الكتاب الملكي» أثر كبير في مؤلَّفٍ في «القِبالة» ظهر في سالرنو بعنوان «الترتولا».

وقد ظلت سالرنو مدة قرنين كاملين عاملة على استمرار نقل الطب إلى أوروبا.

ثم تدنى معهد سالرنو لأسباب عديدة منها وقوعها في طريق الفاتحين، واشتهار معاهد مونبليه وبادوا وبولونيا باستنباتها بذور العلوم الطبية العربية.

واستمر معهد سالرنو بالتقهقر حتى كانت سنة ١٨١١م فأغلق نابليون أبوابه[١].

وقد أحصي عدد التراجمة الذين التحقوا بسالرنو منذ عهد قسطنطين وإلى حين سقوطها عام ١١٩٤م في يد هنري السادس وتدهور الحركة العلمية فيها فبلغوا ثلاثة وعشرين ناقلاً. وبعد سقوط سالرنو انتقلت الحركة العلمية إلى نابولي فبلغت قمتها في أوائل القرن الثالث عشر ثم خبا ضوءها، وبدأت حركة العلم تدب في جامعة بالرمو ومونبليه وكل ذلك بفضل العرب وعلومهم[٢].

٢ ـ مدرسة مونبليه:

كانت مونبليه الواقعة في جنوب فرنسا على مقربة من ساحل البحر المتوسط قرية خاملة قبل القرن الثامن الميلادي، إلا أن شهرتها ازدادت عندما أكسبها حكامها من أسرة غيلهم ـ الذين اشتركوا في الحملات الصليبية

---

(١) «العرب والطب» ص١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) «مقدمة تاريخ الطب العربي» د. التجاني الماحي، ص١٣٤.

وتذوقوا الحضارة العربية الإسلامية، وتعلموا منها الحكمة والتسامح ـ سمعةً تُحسد عليها، فصار العلماء وجلُّهم من العرب أو متحلِّين بالثقافة العربية يتدفقون إليها، ووضعوا فيها أسساً لمعهد علمي عظيم.

وكان منهاج التدريس في هذه المدرسة في أواسط القرن الرابع عشر مرآة صافية تعكس آثار العرب الواردة من طليطلة وقرطبة من جهة، ومن سالرنو من جهة أخرى. فكانت أسماء أعلام العرب الكواكب الساطعة في سماء الطب الغربي.

وكان من الشخصيات التي خدمت أيضاً معهد مونبليه جيرارد كريمون، **وكذلك «ريموند لولي» الذي قصد البلاد العربية للتبشير فتعلم فيها العربية، واطَّلع على الحضارة العربية الإسلامية فعدل عن التبشير في بلادها إذ وجد أن لا فائدة منه.**

أما الكوكب الذي فاق غيره في سماء مونبليه العلمي فهو «دوشولياك» فقد ظلَّ كتابه «الجراحة الكبرى» يدرَّس في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر، ولم يُخفِ دو شولياك في هذا المؤلَّف الضخم الأثر العربي، وقلَّما تفوتك صفحة لا تقرأ فيها شيئاً عن الأطباء العرب خاصة الزهراوي منهم.

وما زالت جامعة مونبليه محتفظة بمقامها الرفيع إلى يومنا هذا وتمتاز عن غيرها باعتراف أساتذتها الباحثين بفضل العلم العربي.

يقول الأستاذ «فورغ» الذي درَّس في جامعة مونبليه ولمع اسمه في بداية القرن العشرين في العالم الغربي كله؛ قال هذا الأستاذ في خطاب تذكاري ألقاه في إحدى الجامعات الإسبانية: «إن إسبانيا أرض قائمة بنفسها يتحلى أهلوها بسرعة الفكر والاستعداد للنضال، مما يجعل هذه الأمة فريدة في بابها، ويرجع ذلك إلى استيلاء العرب على إسبانيا، واختلاطهم بشعبها اختلاطاً دموياً، أدى إلى السير بأوروبا في مضمار التقدم، مما دعا «ليبري» إلى القول: **احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون**».

٣ ـ طريق إسبانيا (الأندلس):

استمر تواجد المسلمين في الأندلس مدة ثمانية قرون (٩٢ ـ ٨٩٧هـ = ٧١١ ـ ١٤٩٢م).

وفي عهد هشام بن عبدالرحمٰن الداخل (٧٨٨ ـ ٧٩٨م) جعلت العربية لغة التدريس في جميع المعاهد، وأنشأ الحَكَم مدرسة في قرطبة جاءها الطلبة المسلمون والمسيحيون من إسبانيا وأوروبا وأفريقيا وآسيا، واستدعى أساتذة من الشرق. وأنشأ مكتبة عظيمة حوت مئتي ألف كتاب، وفي رواية أربعمائة ألف كتاب. وأدخل العرب المسلمون صناعة الورق إلى الأندلس حوالي سنة ١١٥٠م، ثم انتقلت إلى فرنسا وإلى إيطاليا سنة ١١٧٠م.

وأصبحت العربية الفصحى لغة الإسبان المثقفين، وإلى جانبها اللاتينية الفصحى، وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الإسبان المعايشين للعرب.

واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوروبا على طليطلة وإشبيلية وقرطبة حيث كان المستعربون وطلاب العلوم يشدون الرحال إليها.

ومن مدرسة إشبيلية تخرّج كبار الفلاسفة الغربيين، وأشهر المترجمين من العربية إلى اللاتينية كان جيرارد كريمون.

وقد قدم جيرارد كريمون من إيطاليا سنة ١١٥٠م واستوطن في إسبانيا، وينسب إليه ترجمة ما يقرب من مئة كتاب، ويقال بأن بعضها من نتاج تلاميذه[١].

ويشاهد خلال هذه المرحلة اتصال كبار العلماء بالعرب، من ذلك اتصال البابا جيوفاني الحادي والعشرين بهم، **وكان هذا البابا طبيباً من تلامذة العرب**[٢]. ولقد بلغ عدد الكتب المطبوعة المترجَمة من العربية إلى اللاتينية

---

(١) «الطب عند العرب والمسلمين» ص٣٧٨ ـ ٣٨٠ بتصرف.

(٢) «العرب والطب» ص١١٨.

ما يقرب من خمسة آلاف كتاب. وهكذا اجتاحت موجة الثقافة العربية الغرب حاملة في ثناياها العلوم اليونانية كلها، والعلوم الشرقية بأسرها، فكان فضلها على العالم عظيماً.

ولا بد من ذكر شيء عن الراهب «سرفيتوس» الذي كان له الأثر الأكبر في نقل آراء ابن النفيس حول الدورة الدموية، فقد ولد سرفيتوس في إسبانيا سنة ١٥١١م، وعمل مع فزاليوس في التشريح، وفي سنة ١٥٣٣م ألّف كتاباً ضخماً اسمه بالعربية (إعادة المسيحية)، وقد حكم عليه بالموت حرقاً بسببه.

وفي هذا الكتاب وصف مرور الدم من الشريان الرئوي إلى الوريد الرئوي عن طريق الرئة وصفاً مشابهاً لوصف ابن النفيس، بحيث يكون اقتباساً منه. وهناك أدلة على معرفة سرفيتوس للعربية.

ويذكر أستاذ تاريخ الطب في غرناطة أن المورسكيين[1] تعرضوا للاضطهاد خاصة الأطباء منهم، وتمت محاكمة كثير منهم من قبل محاكم التفتيش بتهمة الهرطقة Heriticas، وكانت تشمل كثيراً من الممارسات التي لا يمكن تعليلها، فإن شفاء المريض الذي لم يتمكن خبراء المحاكم والأطباء الإسبان من تعليل شفائه، يعني أنه قد شفي من قبل الشيطان، وأن الطبيب المورسيكي الذي عالجه متحالف مع الشيطان.

ومن الذين سرقوا الكتب الطبية العربية وقدّموها إلى أوروبا باعتبارها من نتاجهم عائلة «ابن طبون» اليهودية التي انتقلت من غرناطة إلى جنوب فرنسا سنة ١١٥٠م، ومارس الترجمة أربعة أجيال منهم، واستعان المؤلفون اليهود بهذه الترجمات عند وضع كتبهم باللغة اللاتينية، وقدّموها على أساس أنها من إنتاجهم[2].

---

(١) المورسكيون: هم المسلمون الذين بقوا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م وجرى تنصيرهم بأعداد كبيرة، ولكنهم بقوا يمارسون شعائر الإسلام خفية، ثم أخرجوا من إسبانيا سنة ١٦٠٩، ويقدر عددهم بنصف مليون نسمة، ذهب معظمهم إلى شمال إفريقيا، وبعضهم إلى فرنسا.

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» د. الحاج قاسم ص٣٨١.

كانت طليطلة نقطة الاتصال بين المدنيَّتين العربية والغربية، ومركز تبادل للبضائع العقلية ولكتب الترجمة، يحج إليها طلاب العلوم من كل فجٍّ.

وفي الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢م جلا العرب من غرناطة فتركوا، كما قال الأديب الفرنسي «كلود فرير» من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون القادمة. كما أن طليطلة بقيت خزانة كتب تغذي بترجمتها الفكر البشري أعصراً مديدة. ولقد بقيت طليطلة مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية.

وفي قرطبة اجتمع في خزانتها زهاء ستمائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً. وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدينة العربية في الأندلس أوجها؛ فأقبل الناس على العلم في جميع بقاع العالم الإسلامي[١].

وقد أنشأ البطريق ريموند عام ١١٣٠م حركة للترجمة بطليطلة.

وقام أكبر جزء من هذه الحركة العلمية على أكتاف التراجمة اليهود، ومن أشهر رجالهم جيرارد كريمون.

ومن بين تراجمة طليطلة «جيرارد سابيونيتا» الذي أتمَّ ترجمة القانون لابن سينا الذي ابتدأه جيرارد كريمون، ووافته منيته قبل أن يكمله، ومنهم ماركوس، وابن داود المعروف باسم Avendeath وغيرهم.

ويعد المستشرقون عام ١٢٨٥م (تاريخ وفاة فرج بن سالم) نهاية عصر الترجمة إلى اللاتينية، وابتداء عصر آخر استطاعت أوروبا فيه هضم هذا التراث الجليل وتمثيله، وطبعه بطابعها الخاص[٢].

---

(١) «العرب والطب» ص١٢٣.

(٢) مقدمة في تاريخ الطب العربي، د. التجاني الماحي، ص١٣٤.

الفصل السابع

قامت الحضارة الإسلامية على أساس إيمانها بالإسلام ونفورها من التعصب الديني، واحترامها لكل الأديان الأخرى، وقد اعترف كثير من المسيحيين واليهود بتسامح المسلمين. فقال البطريك «عيشوياية» الذي تولى منصبه عام ٦٤٧ ـ ٦٥٧هـ: «إن المسلمين الذين مكّنهم الله من حكم العالم ليسوا أعداء للمسيحية، إنهم يوقرون قديسنا وقسيسنا، ويحترمون أماكن عبادتنا».

وقال السير «توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«لقد عامل المسلمون الظافرون المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول من الهجرة، ونستطيع أن نقرّ أن من اعتنق الإسلام من المسيحيين إنما اعتنقه عن رغبة وإرادة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا الحاضر بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح[1] حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾[2].

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» السير توماس أرنولد، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م ص٤٦٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

الحضارة الإسلامية مادة وروح:

وكان من أبرز صفات الحضارة الإسلامية القدرة على الجمع بين جوانب الحضارة الفكرية الروحية وبين جوانب الحضارة المادية. ولا غرابة أن نجد باحثاً أوروبياً مثل «برك» يقول في كتاب له بعنوان «عرب الأمس وعرب الغد»:

«إن الطابع الذي ميّز الحضارة الإسلامية هو الطابع الذي لم يفصل بين المادة والفكر، وإن المسلمين حين بحثوا في أمور السماء وشؤون الروح والفكر عرفوا كيف يبرزون في هذا المجال، وعندما بحثوا في أمور الدنيا عرفوا كيف يفكرون في الحياة، وكيف يسخّرون المادة، حتى كانوا ممتازين في الحالين».

وتلك الظاهرة الفريدة جعلت كاتباً أوروبياً حديثاً مثل «راندال» يقرر في كتابه «تكوين العقل الحديث» أن الفضل في خلط السمو الروحي بالحياة المادية يرجع إلى المسلمين الذين مزجوا بين الفكر والعمل. وهكذا فإن الفكر الإسلامي الممتاز الخلاّق لا يعرف الفصل بين اتجاهات الفكر والروح وبين اتجاهات المادة والواقع»[1].

وقد جاء الإسلام يدعو إلى العلم، وكانت أولى آيات القرآن الكريم التي نزلت على النبي ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[2]. ونزل ذلك لأمة أمية لا تقرأ ولا تكتب حيث كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في قريش آنذاك سبعة عشر رجلاً وامرأة واحدة فقط. وقد امتدح الله تعالى العلماء. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[3] وقال

---

(١) «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» للأستاذ الدكتور عز الدين فراج، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1]. ويطالبنا الله بالعلم والاستزادة منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[2].

ويدعو الله في كتابه الكريم إلى البحث في أنفسنا: كيف خلقنا؟ وكيف نمونا؟ وما في جسمنا من أجهزة دقيقة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

ويطلب الله منا أن يكون عندنا علماء متخصصون في علم وأن نرجع إليهم نستفتيهم ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

واحترم الإسلام العقل الإنساني، ودعا الناس إلى النظر في الكون ليدركوا عظمة الخالق، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[5].

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[6]، وقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[7].

ولا يقتصر العلم في الإسلام على العلوم الشرعية، بل يندرج في ذلك كل العلوم النافعة كالطب والحساب وغيرها، قال الإمام الغزالي في «الإحياء»:

«لو كان عند غير المسلمين علم أو اختراع ليس عند المسلمين أحسن منه وأفضل، فإن المسلمين آثمون محاسَبون على تقصيرهم» ثم قال:

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٦) رواه أبو داود والترمذي.
(٧) صحيح الجامع الصغير (٣٩١٣).

«والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه، فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى»[1].

يقول المسيو «سيديو» الوزير الفرنسي الأسبق، وأحد علماء الغرب المنصفين في كتابه «خلاصة تاريخ العرب»:

«لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوروبا من تحجر العقل، وشلّ التفكير، وجدب الروح، ومحاربة العلم والعلماء، وإنزال أقسى العقوبات بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية، كانوا يعلنونها في سبيل التجديد والإصلاح. ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوروبا بلغ ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء، كان منهم العالِم الطبيعي «بورنو».

وعوقب العالم «جاليلو» بالقتل لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس، وحبس «دي رومنس» في روما حتى مات، ثم حوكمت جثته وكتبه، فحكم عليها بالحرق، وألقيت بالنار لأنه قال: «إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء». وأصاب «جبوفث» في جنيف، و«غايتي» في تولوز، ما أصاب هؤلاء، وحُرقا مشياً على النار.

ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر والعلم الذي عرفته أوروبا».

ويقول المستشرق «سيديو» في نهاية كتابه:

«لقد كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم، وكانوا هم السبب في خروج أوروبا من الظلمات إلى النور. **إن الحرية التي كفلها الإسلام لأهل الأرض، لم يُعرف لها نظير في تاريخ العالم، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام.** وهذه الحرية الفكرية التي نادى بها الإسلام هي التي صاغتها هيئة الأمم المتحدة في ميثاق حقوق الإنسان في

---

(١) «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي.

المادة التاسعة عشرة، حيث تنص هذه المادة على ما يلي:

«لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق اعتناق الآراء والأفكار، وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون التقيد بالحدود الجغرافية».

ويتابع المستشرق سيديو القول: «هذا النص وضع في ميثاق حقوق الإنسان الذي أقرته الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر عام ١٩٤٨ .**هذا النص وضع بعد أربعة عشر قرناً من الزمان... وضع على ورق لم ينفّذه إلا عدد قليل من دول العالم... بينما هذا النص نفذه المسلمون نصاً وحرفاً في كل حياتهم**، وخصوصاً في أيام خلفاء المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، حتى زها العلم وارتقى في مجالاته المختلفة»[١].

همجية أوروبا:

ويقول المستشرق «جوستاف لوبون»:

«لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما دخلت حضارة العرب ديارها، فإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادي، حيث كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون»[٢].

ويحدثنا الأستاذ العلاّمة محمد كرد علي ـ رئيس المجمع اللغوي بدمشق سابقاً ـ عن همجية الإنجليز والفرنسيين فيقول:

«في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بخير ما يجيء به العقل والعمل، ويهاب سطوتها البادي والحضر في كل قطر، في هذه القرون كان

---

(١) «خلاصة تاريخ العرب» للوزير الفرنسي الأسبق «سيديو» نقلاً عن كتاب «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» للدكتور عز الدين فراج، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) «حضارة العرب» جوستاف لوبون، ص٢٨٩.

أن كانت أوروبا غارقة في جهلها وظلامها... كانت شوارع المسلمين في أيام حضارتهم الزاهية مضاءة، مبلّطة بالأحجار، وكانت بيوتهم مفروشة بالطنافس، ومدفّأة بالمواقد، ومعطّرة بالروائح. كانت لهم جوامع كثيرة، ومكتبات مرتّبة، ومستشفيات منظمة، وحمامات نظيفة، غير ما كانوا عليه من حرية وحب وإخاء وتراحم»[1].

تكريم العلم والعلماء عند المسلمين:

كان من أعظم مفاخر الخلفاء والأمراء أن يضم بلاطُهم أهلَ العلم ورجالات الفكر، وأن يغدقوا عليهم في سخاء. ومن دلالات هذه الظاهرة أن كان حنين بن إسحاق ـ شيخ المترجمين ـ يتقاضى من المأمون وزن الكتب التي يترجمها ذهباً، وكان ـ من فرط جشعه ـ يكتب ترجماته على ورق سميك ثقيل الوزن، ويكبّر الحروف ويوسّع ما بين الأسطر حتى تعظم مكافأته من الذهب. ومن ذلك أن السلطان مسعود الغزنوي قد أرسل إلى البيروني ثلاثة جِمال تنوء بأحمالها من الفضة، مكافأة له على كتابه «القانون المسعودي» ـ وإن كان البيروني قد ردَّ الهدية إلى صاحبها معتذراً عن قبولها بقوله: «إنما يخدم العلم للعلم وليس للمال».

وكان المسلمون إذا فتحوا بلداً نقلوا إلى عاصمة ملكهم كل ما فيه من مخطوطات، كما حدث عندما فتح الرشيد عمورية وأنقرة وغيرها من بلاد الروم، وعهد بترجمتها إلى «يوحنا بن ماسويه».

وبلغ من حرص الخلفاء على اقتناء المخطوطات أن كان الحصول عليها في بعض الأحيان من شروط الصلح، كما حدث في معاهدة الصلح التي عقدت بين المأمون وإمبراطور الروم ميشيل الثالث، إذ نصت المعاهدة على أن يهب الامبراطور للعرب مكتبة القسطنطينية التي تحوي ذخائر نادرة بلغت مائة ألف مجلد علمي وطبي.

---

(١) «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» د. عز الدين فراج، ص٤.

الغربيون متوحشين جاهلين، لا يعرفون طعم الراحة، ولا يتذوقون عيش الرفاهية، لا أمن ولا إدارة ولا ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل وتوطيد الأمن.

كانت إنجلترا الأنجلو سكسونية في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها، منقطعة الصلات بغير بلادها، تبني البيوت بحجر غير نحيت، وإسطبلات وحظائر لا نوافذ فيها، تقرضها الأمراض والأوبئة. ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات.

كان في أوروبا المستنقعات التي تنشر الأمراض فتجتاح الناس وتحصدهم، ولم يكونوا يعرفون النظافة، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة.

وبينما كان شارلمان أعظم ملوك أوروبا، وهو معاصر للرشيد، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالي إيطاليا أقرب إلى الأمية، كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب في بغداد وقرطبة، وتترجم للمنصور العباسي الكتب من اللغة العجمية إلى العربية.

هكذا كانت أوروبا الغربية وما إليها. أما حال أوروبا الشرقية فكانت الهمجية المطلقة، بل إن تاريخ روسيا لم يكن بدأ في القرن التاسع الميلادي، وكانت تلك البلاد الواسعة مسرحاً لبعض قبائل الصقالبة، يتسلط التتر عليها ويسومونها سوء العذاب، بل دامت أيام الجهالة في روسيا إلى بعد ذلك العهد بقرون، ولم تخلص روسيا في الحقيقة من كابوس الجهل المطبق إلا في القرن الثامن عشر على عهد مصلحها بطرس الأكبر»[1].

ويصف المفكر الأوروبي الكبير «درابر» الحياة الإسلامية أيام أن كانت أوروبا في قرونها الوسطى المظلمة فقال:

«ليست أوروبا أرقى حضارة، ولا أرقى تقدماً، ولا أعلى ذوقاً، ولا أجمل مظهراً، مما كانت عليه الحضارة الإسلامية في بغداد والأندلس، يوم

---

(١) «الإسلام والحضارة العربية» محمد كرد علي، ج١ ص١٨٧ ـ ١٩٢.

ولاهتمام الخلفاء بالعلماء والأطباء المسلمين وغير المسلمين، أن الرشيد كان يكثر من الدعاء وهو بمكة لطبيبه النصراني «جبريل بن بختيشوع»، فينكر عليه ذلك بنو هاشم، فيقول لهم: إن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه، فيذعنون لما يسمعون.

أما الخليفة المعتصم فقد اشتد به الحزن على موت طبيبه المسيحي سلمويه بن بنان، فبكاه وكفّ عن الطعام يوم مماته.

وارتفع غير المسلمين من العلماء إلى أعلى مناصب الدولة واستشارهم الخلفاء في الشؤون السياسية والإدارية.

وفي ظل هذه السماحة أصاب غير المسلمين من الأطباء خاصة أرباحاً طائلة لم تتهيأ لواحد من معاصريهم من المسلمين، أجزل لهم الخلفاء العطاء، وأجروا عليهم الرواتب والأرزاق، وأغرقوهم بالمنح والعطايا، فالمأمون يصدر أمراً يوجب به على كل من وكل إليه عمل ألا يشرع في مزاولته إلا بعد أن يلقى طبيبه «جبرائيل»، ويمنح حنين بن إسحاق وزن ما يترجم ذهباً. وقضى بختيشوع في خدمة الرشيد والمأمون ثلاثة وعشرين عاماً جمع خلالها ثروة تقدر بثمانية مليون درهم[1]. وكانوا إذا وكلوا إليهم أعمالاً مختلفة، عينوا لهم راتباً لكل منها، حتى كان الطبيب كثيراً ما يجمع بين عدة رواتب»[2].

ويردّ «رام لاندو» على إنكار الغربيين لما قدمه علماء المسلمين في الطب والصيدلة والكيمياء فيقول:

«وحقيقة الأمر أن علماء العرب والمسلمين تقدموا في العلوم الطبيعية مثل الطب والصيدلة والكيمياء، وليس كما يدّعي علماء الغرب أن علماء

---

(١) يقدرها (فون كريمر) بذلك، أما (براون) فيقدرها بنحو مليونين ونصف مليون من الجنيهات الاسترلينية، ويقدرها (ويل ديورانت) بنحو سبعة ملايين ومائة ألف دولار أمريكي، وهي ثروة يتعذر جمعها على أي طبيب معاصر في أغنى الدول. وقد قدرت ثروة الطبيب يوحنا بن ماسويه (توفي عام ٨٢٧م) بمليون درهم.

(٢) «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» د. عز الدين فراج، ص١٢٠ ـ ١٢٢.

العرب لهم السبق في الرياضيات والفلك والأدب والفلسفة فقط. وأن اهتمام العرب بالطب لم يبدأ فقط عندما بدأ قادة العصر العباسي يجلبون الأطباء من جميع أنحاء العالم، كي يترجموا إنتاج الحضارات الأخرى ويؤلفوا، **ولكن لهم يدٌ في هذا المجال في زمن الرسول محمد بن عبدالله**. والجدير بالذكر أن علم الطب لم يقتصر على الأطباء، بل إن كثيراً من علماء العرب في الفروع المختلفة من العلوم الأخرى، لهم دور في ذلك. وأحسن مثل على ذلك البخاري الذي خصص كتابين لعلم الطب»[1].

(١) «أعلام العرب والمسلمين في الطب» ص٢٣.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

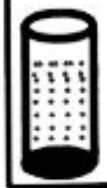

الطب الوقائي في الإسلام

الطب الوقائي ـ كما يعرّفه البروفسور ونسلو ـ هو العلم المتعلق بمنع انتشار الأمراض: الجرثومية، والنفسية، والعضوية، لتحسين أداء الأفراد والمجتمعات.

وكل ما يقدمه العلم للحفاظ على الفرد جسمياً ونفسياً يسمى «صحة الفرد». أما ما يقدمه للحفاظ على الجماعات والبيئة التي يعيشون فيها فيسمى «صحة المجتمع».

وقد أرسى الطب الوقائي في الإسلام قواعده منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان، يوم كان العالم يغط في سبات عميق، وقد جاءت هذه الأسس على شكل تعاليم عامة، تتضمن أوامر ونواهي، يمارسها المسلم تعبداً لله تعالى، وإن كان لا يعلم حقيقة فوائدها الصحية، إنما يمارسها امتثالاً لأمر الله.

وعندما تقدمت العلوم في القرن العشرين، واكتشفت الأمراض ومسبباتها، وعرفت الجراثيم وطرق انتقالها، بدأت تتكشف لنا بعض الحقائق الصحية، والحكم الطبية المذهلة التي تنطوي عليها التعاليم الإسلامية الخالدة[(١)].

(١) «تفوق الطب الوقائي في الإسلام» د. عبدالحميد القضاة ص٦ ـ ٧.

يقول جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «لم يجهل العرب أهمية حفظ الصحة، وكان العرب يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلّمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية سليمة منذ القدم. وما أمر به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر، ثم ما سار عليه أبناء البلاد من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني، في غاية الحكمة..

وكان من عادة مؤلفي العرب الغالبة أن يوجزوا وصاياهم الصحية في كلمات جامعة يسهل حفظها»[1].

ويقول لوبون أيضاً: «كان العرب يعتمدون كثيراً على التدابير الصحية في معالجة الأمراض وعلى الوسائل الطبيعية. ويلوح لي على الأرجح أن الطب العربي في القرن العاشر من الميلاد لم يؤد إلى وفيات أكثر مما يقع في هذه الأيام» ثم يقول: «وليس فيما نسب إلى النبي ﷺ من الوصايا الصحية ما ينتقد»[2].

والإسلام في شموله لم يترك مجالاً من مجالات الحياة، ولا باباً من أبوابها إلا وقال فيه قولاً. افتح كتاب الله، أو افتح كتاب حديث لرسول الله ﷺ، تجده يحدثك عن كل شأن من شؤون حياتك.

النظافة:

فقد حثّ الإسلام على النظافة الشخصية لمنع الأمراض الجرثومية، وهذه تتأتى من خلال الممارسات اليومية التي يقوم بها المسلم عبادة لله تعالى.

فالنظافة أساس حفظ الصحة، وأساس الوقاية من الأمراض. فجعل النظافة من الإيمان، والنظافة مربوطة بالماء، ولا وضوء من دون ماء.

---

(١)(٢) «حضارة العرب» جوستاف لوبون، ص٤٩٢.

ويتكرر الوضوء عدة مرات في اليوم الواحد، وينظف الأجزاء المكشوفة من الجسم، وهي الأكثر تلوثاً بالجراثيم. ففي المناطق المكشوفة يتراوح عدد الجراثيم ما بين ١ ـ ٥ مليون/ سم.[٢]

وهذه الجراثيم في تكاثر مستمر، حتى قد تصل إلى ضعف ذلك في ساعة، وللتخلص منها لا بد من غسل الجلد باستمرار. ولا غسل أكثر ديمومة وتكراراً من الوضوء الذي أمرنا الله به، وحثّنا عليه رسول الله ﷺ حيث قال: «**لا تقبل صلاة بغير طهور**»[١]. وقال: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**»[٢].

وأوجب الإسلام الوضوء للصلاة والطواف، وصلاة الجنازة، وسجود التلاوة ومس القرآن. وندبه لكل صلاة: «**لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع كل وضوء بسواك**»[٣].

وندبه للنوم على طهارة: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة**»[٤] وبعد ثورة الغضب: «**فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»[٥] ولأمور كثيرة أخرى.

ومن أسرار الطب الوقائي في الإسلام أن جعل النظافة أمراً تعبدياً مما يجعل فيها روحاً وديمومة لا يستطيعها أي قانون آخر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده**»[٦].

وقد أوجب الرسول عليه الصلاة والسلام الغسل في مواقف عديدة، كغسل الجنابة والحيض والنفاس وغيرها.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد بسند صحيح.
(٤) رواه البخاري، والترمذي، وأحمد.
(٥) رواه أحمد.
(٦) رواه الشيخان.

وليس هناك دين اهتم بالنظافة واستعمال الماء اهتمام دين الإسلام بذلك.

أما أتباع الأديان الأخرى فهم بعيدون عن النظافة. فالكاثوليك ـ وأكثرهم في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ـ يقولون إن ماء المعمودية الذي يغتسلون به عند ولادتهم يغنيهم عن الغُسل طوال حياتهم.

أوروبا تقلِّد المسلمين في إقامة الحمَّامات:

كان المسلمون في القرون الوسطى يعيشون حياة نظيفة راضية بحكم تعاليم دينهم، في الوقت الذي كان فيه أغلب الأوروبيين يعيشون حياة مظلمة قاسية. كانوا لا يغتسلون إلا قليلاً، وكانت ملابسهم مزرية، وشوارعهم مملوءة بالأتربة والقاذورات.

يقول الأستاذ «أ. بورد» الأمريكي الذي أشْهَرَ إسلامه بعد دراسة متعمقة لمبادىء الإسلام:

«إن أوروبا مدينة للمسلمين بكثير من وسائل الراحة الشخصية في حياتها. فالنظافة من دين المسلمين، وما كان لهم أن يقبلوا على أنفسهم ما كان يرتديه الأوروبيون في ذلك الوقت من ثوب واحد يظل على أجسادهم حتى يتساقط إرباً بالية كريهة الرائحة».

ويستشهد «بورد» على ذلك بما أورده العلاّمة «جون درابر» في كتابه «التطور الفكري في أوروبا» عن حال الأوروبيين عندما بزغ فجر الحضارة الإسلامية. حين وصف ما كانوا عليه من همجية، فأجسادهم لا تعرف النظافة، وعقولهم جاهلة مظلمة، ومساكنهم أكواخ بالية».

وعندما بدأت أوروبا تتصل بالمجتمعات الإسلامية عن طريق الأندلس، ثم عن طريق الحروب الصليبية بهرهم حرص المسلمين الشديد على النظافة، فقلدوها، وأقاموا الحمامات العامة والخاصة.

لقد بلغ عدد ما وجد من الحمامات في الجانب الشرقي وحده من

بغداد في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام. وبلغ عدد ما وجد منها في الجانبين معاً في القرن الرابع الهجري عشرة آلاف حمام، ووجد في العاصمة المصرية في أيام الفاطميين سبعون ومائة ألف حمام!!

لقد لمس الصليبيون هذه الحياة الإسلامية وأدركوا أثر الحمامات، بما فيها من وسائل الراحة والنظافة، فهاموا بها، كما هام بها أولئك الغربيون الذين شاهدوها في إسبانيا وصقلية، فأصروا جميعاً على إدخالها في أوروبا، رغم المعارضات الشديدة وصرخات الاستنكار[1].

وأمر الإسلام الإنسان أن يغسل يديه بعد الاستيقاظ من النوم قبل أن يلمس بها أي شيء. قال رسول الله ﷺ: **«إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده»**[2].

ويوصي الإسلام بأن نغسل أيدينا قبل الطعام وبعده. قال عليه الصلاة والسلام: **«بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»**[3].

والأفضل أن يكون غسل اليدين بالماء والصابون.

كما أوجب الإسلام الاستنجاء، فقد روى البخاري: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج لحاجته تبعْتُهُ أنا وغلام منّا معنا إداوةٌ من ماء»، كما روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: **«مُرْنَ أزواجكن أن يستطيبوا بالماء»** أي أن يستنجوا بالماء.

ولا يزال المسلمون يستنجون بالماء منذ أربعة عشر قرناً، ولم تهتدِ الأمم التي تصف نفسها بالراقية.. إلى تلك الخصلة الحميدة حتى الآن، فترى مراحيضهم خالية من الماء، حتى ليحتار الإنسان كيف يصنع بنفسه. والأفضل أن يقرن الماء بالورق النشاف، وأن يغسل المرء يديه **بالماء والصابون بعد فراغه** من الاستنجاء.

---

(١) «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» د. عز الدين فراج، ص١٦٣.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما رأيتُ رسول الله ﷺ خرج من غائط قطُّ إلا مسَّ ماء**».

أي أن النبي ﷺ كان يغسل يديه بالماء عقب انتهائه من الغائط.

وحبذا لو التزم جميع المسلمين بهذا الهدي النبوي، ويغسلون أيديهم بالماء والصابون بعد انتهائهم من الغائط، إذن لاختفت تلك الأمراض التي تنتقل بواسطة البراز. فكثير من الجراثيم تنطرح عن طريق البراز، ومنها جرثوم الزحار، والتيفوئيد، والكوليرا، كما ينطرح بالبراز كثير من الطفيليات كالأميبا الزحارية، وبيوض البلهارسيا، وديدان الأمعاء.

والتخلص من بقايا البراز بالاستنجاء مهم جداً من الناحية الصحية، حيث إن البراز يحتوي على مئات الملايين من الخلايا الجرثومية.

وقد ثبت أن حاملي جرثوم التيفوئيد ربما يكون في الغرام الواحد من برازهم أكثر من خمسة وأربعين مليوناً من جرثوم التيفوئيد. أما مريض الزحار (ديزنتاريا) الجرثومي أو الطفيلي أو مريض الكوليرا، فمن المستحيل إحصاء أعداد الخلايا الجرثومية التي تخرج منهم يومياً لكثرتها[1]. ولكن تلوث اليد والملابس لهما دور كبير في نشرها، لذلك ركز الإسلام على استعمال اليد اليمنى للمأكل والمشرب والمصافحة، واليد اليسرى للاستنجاء، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يُمسكنَّ أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتَمَسَّح من الخلاء بيمينه، ولا يتنفس في الإناء**»[2].

وقد أمر الإسلام بالتَّنزُّه من البول والمحافظة على نظافة الملابس وتجنيبها التلوث به ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾[3].

وقد أمر النبي ﷺ بعدم التَّبوُّل والتَّبرُّز في قارعة الطريق، وتحت ظِلِّ الشجرة، وفي الماء، وفي الموارد.

---

(١) «تفوق الطب الوقائي في الإسلام» للدكتور عبدالحميد القضاة، ص٢٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤.

ولو استجاب المسلمون لأوامر نبيهم ونصائحه؛ لأدّى ذلك إلى اختفاء العديد من الأمراض التي تنتقل بواسطة البراز إلى الفم، وهي أمراض عديدة يبلغ المصابون بها ما يزيد عن الألف مليون من البشر، ومثالها ديدان الأسكارس والأنكلستوما (ويبلغ عدد المصابين بها أكثر من ألف مليون)، وديدان البلهارسيا (أكثر من مائتي مليون)، وطفيليات الأميبا والجيارديا (وتصل نسبة الإصابة بها إلى ٧٠ ـ ٨٠٪ من السكان في بعض الدول النامية) والكوليرا والتيفوئيد وغيرها.

نظافة الفم:

يقول الدكتور أحمد شوكت الشطي: «**منذ عهد الرومان وحتى القرن السادس عشر انتشرت في أوروبا عادة المضمضة بالبول. وقد كانوا يفضلون البول الإسباني، فإن لم يتيسر استعانوا عنه ببول الثيران**»[1].

ولم يهتم نظام بنظافة الفم كالإسلام، حيث إن نظافة الفم ترد في الوضوء (المضمضة) وخلخلة الأسنان من بقايا الطعام. (وتخلخل المرء بعد الأكل؛ أي إخراج ما بين أسنانه من بقايا الطعام) قال رسول ﷺ: «**حبّذا المُتخلّلون**» قالوا: **وما المتخلّلون يا رسول الله؟ قال: «المُتخلّلون بالوضوء، والمتخلّلون من الطعام. أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع، وأما تخليل الطعام فمن الطعام. إنه ليس شيء أشدّ على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو يصلي**»[2].

وروى الهيثمي أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قوله: «**إن فضل الطعام الذي يبقى بين الأضراس يوهن الأضراس**»[3].

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالسواك فقال: «**لولا أن أشُقّ على**

---

(١) «رسالة في تاريخ الطب» د. أحمد شوكت الشطي.
(٢) رواه أحمد، والطبراني. وفي إسناده واصل بن السائب وهو ضعيف.
(٣) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[1].

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك».

وحتى أثناء الصيام، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستاك في رمضان، فعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: «رأيت الرسول ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أحصي أو أعد»[2].

وتدل الأحاديث الشريفة على مدى اهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام بالسواك، فكان يستعمله في جميع أحواله، إذا دخل البيت، وإذا قام من الليل، وبعد الطعام وقبل الصلاة...

ومعروف أن الفم مدخل الطعام والشراب إلى الجسم، وتدخل عبره أعداد هائلة من الجراثيم التي يستقر الكثير منها في الفم، فإذا بقيت فيه آثارٌ من طعام أو شراب، هاجمتها تلك الجراثيم، فتفسخ الطعام وأطلق الروائح الكريهة، ومع مرور الأيام تتنخر الأسنان، وتتراكم بقايا الأملاح حول الأسنان ويتشكل القلح، وقد تلتهب اللثة وتتقيح، وربما أدى ذلك إلى تخلخل الأسنان وتساقطها.

فللمحافظة على سلامة الأسنان والفم وسلامة الجسم كله لا بد من الاعتناء بنظافة الفم. وخير ما يكفل ذلك؛ السواك. وفي السواك مواد مطهرة، ومواد عطرية، وأملاح معدنية، ومواد قاتلة للجراثيم. وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن في السواك مواد تمنع نخر الأسنان، وتزيل القلح، وتبيض الأسنان[3].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) انظر كتاب الأستاذ الدكتور محمد علي البار بعنوان «السواك»، إصدار دار المنارة ـ جدة.

تعاليم الإسلام وقاية من الأمراض:

وتأتي أهمية الصلاة القصوى في كونها صلة بين العبد وربه؛ ومع هذا فإن الصلاة تضفي على المؤمن سكينة وهدوءاً؛ وبالتالي تقي من أمراض العصر كالقلق والتوتر وما ينتج عنهما من أمراض نفسية عديدة، والأمراض النفسية ـ الجسمانية Psychosomatic، ومنها قرحة المعدة، وتشنج القولون وغيرها.

كما تحافظ الصلاة على العمود الفقري من الاعوجاج، وقد قدّمت أبحاث عديدة في أهمية الصلاة في المحافظة على العمود الفقري، وكونها علاجاً طبيعياً في تلك الحالات.

أما فوائد الصيام على الصحة فلا تكاد تعد ولا تحصى. وقد قال ﷺ: «**صوموا تصحوا**»[1]، فالصوم يمنع السمنة وأخطارها على الصحة، حيث إن لها دوراً في إحداث مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، ومرض شرايين القلب التاجية، وتكوُّن الحصى في المرارة، وإصابة المفاصل بداء المفاصل التنكسي.

وتأتي تعاليم الإسلام الواضحة التي تمنع الفاحشة، بل وتمنع مقدماتها من التبرج والسفور والاختلاط، فتؤدي إلى تجفيف منابع الرذيلة وما يستتبعها من أمراض وبيلة فتّاكة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»[3].

وقد رأينا ازدياداً مريعاً في انتشار الأمراض الجنسية، وآخرها الإيدز الذي دخل إلى أجسام أكثر من ١٤ مليون شخص في العالم أجمع.

---

(١) رواه ابن السني، وأبو نُعيم (ضعيف الجامع الصغير ٣٥٠٤).

(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

(٣) أخرجه الحاكم، وابن ماجه، والبزار.

وهناك مرض السيلان الذي يصيب أكثر من مليوني شخصاً سنوياً في أمريكا، ثم هناك الكلاميديا التي تصيب الملايين من الناس في كل عام، ومن مضاعفاتها إصابة الجهاز البولي والتناسلي وحدوث العقم وغيرها. ثم هناك الهربس، وما أدراك ما الهربس الذي يصاب به مئات الملايين؟ ثم هناك الزهري الذي يصيب أكثر من ١٠٠,٠٠٠ شخص كل عام في أمريكا[١].

وإذا انتقلنا إلى الخمور التي حرّمها الإسلام تحريماً قطعياً، فسنذهل لما ترويه لنا المصادر الطبية الأمريكية والأوروبية؛ فقد جاء في كتاب «cecil» الطبي الشهير في طبعة ١٩٩٦ أن الخسائر الناجمة عن مشكلة المسكرات في أمريكا بلغت ما قيمته ١٣٦ بليون دولار في العام الواحد، وأن ربع الحالات التي تدخل المستشفيات الأمريكية، سببها أمراض ناجمة عن شرب المسكرات».

وجاء في كتاب «Safe Food» أن نصف عدد الجرائم في بريطانيا يقوم بها أناس سكارى، وثلث حوادث السيارات تحدث بسبب الخمر، والخمر مسؤول عن ثلثي حالات الانتحار، وخُمس حالات الاعتداء الجنسي عند الأطفال[٢].

ومشكلة أخرى يعاني منها العالم أجمع هي التدخين، فكما تقول منظمة الصحة العالمية فإن التدخين يؤدي إلى قتل مليونين ونصف المليون من البشر سنوياً، وهو رقم يفوق عدد الوفيات الناجمة عن المخدرات والإيدز، وحوادث السيارات بمجموعها.

وقد أفتى علماء الإسلام مراراً بتحريم تعاطي التبغ وزراعته والاتجار به، ولو نُفّذ ذلك لأمكن إنقاذ الملايين من براثن المرض والموت.

---

(١) «الرعاية الصحية في الإسلام» د. محمد علي البار، مجلة المنهل، العدد ٥٠١.

(٢) راجع كتابنا «أطباء الغرب يحذرون من شرب الخمور» دار القلم، دمشق، دار البشير، جدة.

واعتنى الإسلام برعاية الطفولة والأمومة. فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، واعتنى بتكوين الأسرة الصالحة، وحثّ على الزواج من الأكفاء. ونبّه إلى اختيار الزوجة الصالحة. قال ﷺ: «**تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس**»[1].

وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**اغتربوا لا تضووا**[2]» أي لا تتزوجوا القريبات حتى ينحصر الزواج فقط بالأقارب دون غيرهم، فقد يؤدي ذلك إلى ضعف البنية وظهور الأمراض الوراثية المتنحية.

والحديث عن الطب الوقائي في الإسلام يطول، فما أروع هذا الدين الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا وحثّ عليها إن كانت للمسلمين خيراً، ونهى عنها إن كان فيها المصائب والبلاء! إنه شرع الله الذي ارتضاه لعباده ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾!

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

(١) رواه ابن ماجه، والديلمي.

(٢) ضَوِيَ ضَوىً: ضعف وهزل، أو دَقَّ. اهـ. المعجم الوسيط.

الفصل التاسع

الآسيات والطبيبات المسلمات

إذا كان الغرب يفخر بالممرضة الإنجليزية «نايتنغيل»[1] التي خرجت من الطبقة النبيلة تدعو إلى التمريض واعتباره عملاً شريفاً، فمن الواجب ـ كما يقول الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي ـ أن نرد هذا الفخار إلى المرأة العربية في صدر الإسلام.

كانت المرأة العربية لا تتوانى عن المساهمة في الخدمات الاجتماعية، وقد اختصت في الغالب بهذا العمل فئة من نساء العرب. وعلى رأس تلك الخدمات التي برزت فيها المرأة، التمريض والإسعاف الصحي في السلم والحرب، وقد أجاز الشرع هذا العمل. وكان العرب يطلقون اسم الآسيات والأواسي على النساء العربيات اللائي يعملن في تضميد الجراح وجبر العظام، والوقاية من النزف وغير ذلك من أعمال الإسعاف. وقد سمّين بهذا الاسم لأنهنّ يعالجن جراح الجريح، ويواسينه، وكنّ يسرنَ إلى المعارك مع الرجال حاملات أواني الماء، وإلى جانب كل منهنّ ما يحتاج إليه الجرح من اللفائف والجبائر وغير ذلك، وكن يَنْفُذْن بين الرجال فيرافقن الغزاة مسعفات معالجات، ومنهنّ من كنّ يشتركن في

---

(١) نايتنغيل: ممرضة إنجليزية ولدت في إيطاليا ١٨٢٠م، أسست مدرسة للتمريض ووضعت الأسس الجديدة لإصلاح التمريض، توفيت عام ١٩١٠.

القتال، وكانت لهنَّ مواقع مشهودة، نذكر فيما يلي سيرة بعضهنَّ:

آسيات في عهد الرسول ﷺ:

١ ـ **رفيدة:** طبيبة متميزة بالجراحة اختارها الرسول ﷺ لتقوم بالعمل في خيمة متنقلة.

٢ ـ **أمينة بنت قيس الغفارية:** خرجت زعيمة للآسيات الطبيبات ولما تبلغ السابعة عشر من عمرها.

٣ ـ **أم عطية الأنصارية:** اشتهرت بالجراحة، وغزت مع الرسول ﷺ حيث كانت تداوي الجرحى وتقوم على المرضى.

٤ ـ **أم سليم:** كانت تشترك في غزوات الرسول ﷺ ومعها نسوة من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى.

٥ ـ **أم سنان الأسلمية:** اشتركت في غزوة خيبر.

٦ ـ **أم أيمن:** حضرت أُحداً وكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى.

٧ ـ **كعيبة بنت سعد الأسلمية:** وهي إحدى النجيبات المعدودات من طبيبات العرب، وكانت لها خيمة تداوي فيها المرضى وتأسو الجرحى.

٨ ـ **خمنة:** كانت تغشى الموقعة في غزوات الرسول ﷺ فتحمل الجريح وتعود به حيث تأسو جراحه.

٩ ـ **الربيّع بنت معوذ:** كانت تسقي في الغزوات القوم وتخدمهم وتداوي الجرحى، وترد القتلى إلى المدينة.

١٠ ـ **نُسيبة بنت كعب المازنية:** اشتركت في غزوة بدر، وخرجت أيضاً يوم أحد، ومعها زوجها وولداها. وأخذت تسقي العطشى وتضمد جراح المرضى.

ولما رأت نُسيبة ما حلَّ بجيش الرسول عليه الصلاة والسلام وأيقنت بدنو الهزيمة فلم تطق الاكتفاء بالمواساة، بل انتضت سيفها واحتملت قوسها،

وأخذت تصول وتجول وحولها نفر قليل من الأبطال بينهم ولداها وزوجها، حتى التحم بالرسول ﷺ أشد خصومه، فشرعت السيف، وأخذت تضرب به، وكانت لا ترى الخطر يدنو من الرسول عليه الصلاة والسلام حتى تكون سداده، قال فيها الرسول ﷺ: «**ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني**».

ولقد بقيت تجالد القوم حتى جرحت وخارت قواها، وارتمت على الأرض مصروعة.

وثبت الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه، وانجلى من الغمرة ما انجلى، وتساءلوا عن نُسيبة فإذا هي ملقاة يفور دمها من جرح بكتفها، ضمدوا الجرح وسقوها الماء، وبرئت نسيبة. وأصيبت نسيبة في ذلك اليوم بثلاثة عشر جرحاً.

واشتركت نسيبة في حرب مسيلمة الكذاب أيضاً الذي كاد جيشه يهزم جيش المسلمين لو لم يستبسل نفر منهم، بينهم نسيبة وولدها عبدالله.

أما نسيبة فواست الجرحى، وضمدت جراحهم، ثم جالدت حتى بتر ذراعها، وعادت إلى بلدها بساعد واحد، وهي تقول في قرارة نفسها: إنني بما مضى أسعد مني بما بقي، كلٌّ إلى فناء، وإنما الفوز والمجد أن يكون في سبيل الحق والإيمان ذهابُ ما ذهبَ منك[1].

دور الآسيات المسلمات:

ويقول الأستاذ الدكتور أحمد شوكت الشطي:

«لم تكن المرأة العربية أيام نهضة العرب عنصراً غير فعال في المجتمع، ميّالة إلى الراحة والدّعة واللهو والترف، كما يريد البعض أن يصورها زوراً وبهتاناً، بل كانت سبّاقة في ميدان العمل الاجتماعي والفردي فضلاً عن أنها كانت من أحسن ربّات البيوت، تدبيراً لمنزلها، وعناية بأولادها، وسعياً وراء تأمين راحة زوجها. وكانت إلى جانب ذلك عاملة

(١) «العرب والطب» ص٣٩ ـ ٤١ بتصرف.

تكسب معاشها إذا أحوجها الأمر بعمل شريف يدرُّ عليها الرزق ما يمكنها من الاضطلاع بأمومتها على خير وجه وأقوم سبيل. لقد كان إسعاف الجرحى من اختصاص فُضْلَيات النساء، يتخذنه قياماً بالواجب، وحباً في التضحية، ومشاركة في الجهاد، وهنَّ يسرن إلى المعارك مع الرجال»[1].

ويقول الدكتور أحمد عيسى في كتابه «تاريخ البيمارستانات في الإسلام»:

«وقد تخطى الاهتمام بالطب الرجال إلى النساء، فكان منهن طبيبات بارعات، بل كان منهن من تولت مشيخة الطب في حاضرة من أعظم حواضر الإسلام».

ويستطرد الدكتور أحمد عيسى فينقل عن «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» يقول:

«وشهاب الدين ابن الصائغ هو أحمد بن سراج الدين مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورياسة الأطباء، وكانت ولادته سنة ٩٤٥هـ وتوفي سنة ١٠٣٦هـ. ولم يخلّف إلا بنتاً تولت مكانه مشيخة الطب»[2].

ويقول الدكتور عبدالله عبدالرزاق السعيد:

«إن اعتقاد الأوروبيين بأن النساء المسلمات لسنَ سوى قطيع من الماشية في يدي سيدهنَّ الرجل بعيد كل البعد عن الحقيقة، فقد اشتركت المرأة فعلياً في حياة القبيلة والأمة، ونبغ بين النساء كثيرات من المحاربات والشاعرات والطبيبات.

وهاكم العديد من المسلمات مارسن صناعة الطب في صدر الإسلام، ومنهن: رفيدة، وأم سليم، وأم سنان، وأمينة بنت قيس الغفارية، وكعيبة بنت سعد الأسلمية، والشفّاء بنت عبدالله، وفي عصر الأمويين مارست

---

(١) «تاريخ الطب وآدابه وأعلامه» للدكتور أحمد شوكت الشطي.

(٢) «تاريخ البيمارستانات في الإسلام» د. أحمد عيسى، ص١٦٤.

الطب زينب طبيبة بني أود، وفي الأندلس أخت الحفيد بن زهر وابنتاه وابنتاها اللواتي اشتهرن بأمراض النساء والولادة، وبنت دهن اللوز الدمشقية طبيبة ماهرة (ودهن اللوز من شيخات وعالمات دمشق توفيت بها في ربيع الآخر عام ٦١٤هـ»[١].

وتلكم الصحابية الجليلة المسلمة، التي قامت على تمريض جرحى المسلمين في خيمة نصبت لها في مسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة أثناء غزوة الخندق، فكانت تلك الخيمة أول مستشفى ميداني عسكري في الإسلام، ورفيدة الأسلمية كانت المشرفة عليه، فاعتبرت بذلك أول ممرضة للميدان، ولقد قامت على تمريض سيِّد الأوس الأنصاري سعد بن مُعاذ، والإشراف عليه في ذلك المستشفى، عندما قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب**». وكان سعد بن معاذ قد أصيب بسهم رماه به حِبَّان بن قيس فقطع من سعد الأكحل وهو عرق في الذراع؛ وبذلك اعتبرت رفيدة أول ممرضة للميدان في الإسلام.

وهاكم أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»[٢]. وكانت تقوم بعمليات ختان الصبيان، ونالت شهرة عظيمة في الجراحة[٣].

وأين عزل النساء عن المجتمع؟! وهاكم الطبيبة زينب؛ طبيبة بني أود، تعالج رجالاً من رمد أصاب عيونهم. وقد أطلق العرب على الذين يشتغلون في طب العيون «الكحَّالة».

يروي ابن أبي أصيبعة الطبيب المؤرخ المشهور عن كناسة عن أبيه عن جده قال:

---

(١) أعلام النساء ١/٤٢٠.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «الطب ورائداته المسلمات» للدكتور عبدالله عبدالرزاق السعيد، ص٢٠ ـ ٢٥ بتصرف.

«أتيت امرأة بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني فكحلتني» ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينك. فاضطجعتُ ثم تمثلتُ قول الشاعر:

أمخترمي ريب المنون ولم أزر طبيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا! قالت: فيَّ والله قيل، وأنا زينب التي عناها، وأنا طبيبة بني أود. أفتدري مَن الشاعر؟ قلت: لا. قالت: عمك أبو سماك الأسدي[1].

ولعبت المرأة المسلمة دوراً هاماً في طب الأمراض النسائية والتوليد، يقول أبو القاسم الزهراوي في كتابه «التصريف»:

«ينبغي أن تتخذ طبيبة محسنة، وقليلاً ما توجد، فإن عدمتها فاطلب طبيباً عفيفاً، وتحضر قابلة محسنة في أمر النساء، وتأمرها أن تصنع جميع ما تأمرها به من التفتيش عن الحصاة...»[2].

وهاكم أبو بكر الرازي يقول في كتابه «الحاوي»:

«قل للقابلة تجس عنق الرحم، فإن كان منضماً بلا صلابة دلَّ على حبل...».

ويعلق على ذلك الأستاذ الدكتور كمال السامرائي رئيس قسم الأمراض النسائية والتوليد في كلية طب بغداد:

«ويفهم من كتابات الرازي أنه لم يكن يفحص بنفسه على الأعضاء الأنثوية في المرأة لأسباب تقليدية أو نفسية، وأنه كان يسأل القابلة أن تفحص عليها بعد أن يرشدها إلى طريقة الفحص والهدف منه»[3].

كانت المرأة المسلمة تزاول مهنة الطب في حين لم يعرف من قبل عن

---

(١) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص١٨١.
(٢) «التصريف لمن عجز عن التأليف» المقالة الثلاثون ص٢٩٠.
(٣) «الأمراض النسوية في التاريخ القديم» ص٤٤.

النساء مزاولة تلك المهنة إلا ما ندر.

يقول الدكتور كمال السامرائي:

«لم تعرف امرأة طبيبة تعمل في هذا الاختصاص في ما بين النهرين أو مصر، أما في الهند فقد عرفت في أواخر حضارة وادي السند (الألف سنة قبل الميلاد)، طبيبة باسم «روسي»، كانت تعمل في الأمراض النسائية والولادة، كما كانت تعمل في طب التجميل أيضاً... وقد عرف أن أم سقراط المتوفى ٣٩٩ق.م، كانت قابلة ذائعة الاسم في صنعة القِبالة»[١].

وقد نبغ من المسلمات طبيبات في الأمراض النسائية؛ إذ يروي ابن أبي أصيبعة أن شقيقة الحفيد بن زهر وبناتها كن نابغات في طب الأطفال والأمراض النسائية. يقول:

«وكانت مع الحفيد أيضاً بنت أخته، وكانت أخته وابنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور، ولا يُقبل (تتولى قِبالة نساء أهله، أي: توليدهن) للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد أو ابنتها لما توفيت أمها»[٢].

وينطوي بحث الزهراوي في صحة الأم والطفل، وعن مهنة التوليد على أهمية خاصة في تاريخ التمريض لأنه يوحي بوجود مهنة مزدهرة تمارس فيها الممرضات والقابلات أدوارهن في مجال الخدمة العامة، وهذه حقيقة يمكن أن يعززها إحجام العديد من العائلات الإسلامية المحافظة عن طلب مساعدة الأطباء الذكور في حالات الولادة الطبيعية، وأن الأطباء والقابلات المهَرَة، من أمثال الزهراوي وغيره، كانوا يرشدون ويدربون القابلات كي يؤدّين واجباتهنّ بكفاءة[٣].

---

(١) «الأمراض النسوية في التاريخ القديم» ص١٢ ـ ١٧ بتصرف.
(٢) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».
(٣) «عبقرية الحضارة العربية» ص٣٠٣.

المرأة في نظر الأوروبيين:

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع المؤتمرون! في أوروبا في زمن النبي ﷺ في سنة ٥٨٦م لبحث: «هل المرأة إنسان؟!»، وبعد بحث ومناقشة وجدل، قُرر أنها إنسان ولكن خُلقت لخدمة الرجل وحده.. ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر في أوروبا حتى نقضه محمد ﷺ في بلاد العرب؛ إذ رفع صوته قائلاً: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**خياركم خياركم لنسائهم**»[٢]، وقال أيضاً: «.. **والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»[٣].

وفي القرن السابع الميلادي عُقد مؤتمر عام في روما بحث فيه المجتمعون شؤون المرأة، فقرر المؤتمر «أنها كائن لا نفس له».. وعلى هذا فليس لها الحق في أن ترث الحياة الآخرة...!!.

ووصفها هذا المؤتمر بأنها «رجس كبير»، وفرض عليها ألا تأكل اللحم، وألا تضحك، وألا تتكلم؟!

في هذا الوقت بالذات.. كانت المرأة المسلمة تأخذ طريقها نحو النور، وتحتل مكانتها الرفيعة في المجتمع الإسلامي، وتقف بجانب الرجال في معترك القتال.

قالت الربيِّع بن معوذ: «كنا نغزو مع رسول الله، ونسقي القوم ونخدمهم، ونحمل القتلى والجرحى إلى المدينة».

وعن أم عطية الأنصارية قالت: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى»[٤].

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وأبو داود.

(٢) رواه ابن ماجه، وأحمد، والترمذي، (صحيح الجامع الصغير ٣٢٦٥).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف المستشرق «أندريه سرفيه» نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها؟.

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو «ريفيل» أن يقول بدوره: «لو رجعنا إلى زمن هذا النبي، لما وجدنا عملاً أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول؛ فالنساء مدينات لنبيهنَّ بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس».

وكتبت جريدة المونيتور الفرنسية مرة تصور احترام الإسلام ونبيه للمرأة فتقول:

«لقد أحدث الإسلام ونبيه تغييراً شاملاً في احترام المرأة العربية في المجتمع الإسلامي، فمنحها حقوقاً واسعة، تفوق في جوهرها الحقوق التي منحناها للمرأة الفرنسية»[1].

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

(١) «فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية» د. عز الدين فراج، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

تَذييل

قائمة بالكلمات الإنجليزية المشتقة من أصل عربي

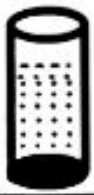

كتب المستشرق الإنجليزي «ولت تايلور» بحثاً بعنوان «الكلمات العربية في اللغة الإنجليزية». وقد قامت بطبعه مطبعة أوكسفورد، يقول «تايلور»: «هناك حوالي ألف كلمة ذات أصل عربي في اللغة الإنجليزية، وآلاف أخرى مشتقة من هذه الكلمات انتقلت من العربية بعد التحريف والتعديل. وهناك حوالي ٢٦٠ كلمة من الألف التي ذكرناها في الاستعمال الدارج اليومي. ويضم معجم أوكسفورد (٤٠٥) من هذه الكلمات ومنها ٢٨٣ كلمة في قاموس أوكسفورد للجيب».

ونورد في القائمة التالية الكلمات الإنجليزية التي اشتقت من أصل عربي في حقب تاريخية مختلفة، والكثير منها دخل اللغة العربية من لغات أخرى. وحيث إن الغرض الرئيسي من هذه القائمة هو بيان دَيْننا للإسلام في العصر الوسيط[1]، فقد استبعدنا منها كلمات أخرى أدخلها حديثاً في لغتنا بعض الرحّالة في الأقطار العربية. ولا ندّعي أن هذه القائمة كاملة. وهي تشمل بعض الكلمات التي يختلف البعض حول أصل اشتقاقها (وأمام

---

(١) كما يقول د. مونتجومري وات في كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية» والذي نقله إلى العربية حسين أحمد أمين. وقد اقتبست هذه القائمة منه.

عدد منها علامة استفهام). وقد استعنّا في إعدادها بمراجع عديدة، أكثرها شمولاً هو كتاب كارل لوكوتش Karl Lokotsh.

«Etymologisches Wörterbuch der europäischen Wörter orientalischen Ursprungs».

الذي نُشر في هايدلبرج عام ١٩٢٧.

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

الإنكليزية	العربية
Abyssinia	حبشي
Admiral	أمير البحر أو أمير الرّحل
Adobe	الطّوب
Albatross	القادوس (وهو الإبريق؛ أي الطائر على هيئة الإبريق)، وفي البرتغالية Alcadroz
Alcaide, Alcalde	القائد
Alcanna	الحِنّاء
Alchemy	الكيمياء (وفي المصرية القدية Kemi)
Alcohol	الكُحْل أو الكَحول (وهو مسحوق)
Alcove	القُبّة، وفي الإسبانية alcoba
Alembic	الأنبيق، وباليونانية ambix
Aleppin	حَلَب (نوع من القماش)
Alfa, Halfa	حَلْفا
Alfalfa	الفَصْفَصَة
Algebra	الجَبْر
Algorithm	الخوارزمي (اسم علم)
Alkali	القَلي (وهو البوتاس)
Alkanet	الحِنّاء
Almagest	المَجسْطي (لفظ يوناني)
Almanach	المُنَاخ
Alpaca	الـ (بالإسبانية Paco)
Amalgam	المَلْغَم (باليونانية malaga)
Amber	عنبر
Amice	المُسْتَق (وهي فارسية، وبالإسبانية almucio)
Amulet (?)	الحمائل
Anilin	النِّيلة (بالسنسكريتية nilas)

الإنكليزية	العربية
Antimony	إثْمد (بالقبطية Stim)
Apricot	البرقوق (باللاتينية praccox، وبالإسبانية albaricoque)
Arab, Arabesque	عَرَب Arabesque، (وهو حصان)
Arrack	عَرَق
Arsenal	دار الصناعة
Artichoke	الخرشوف (بالإسبانية alcarchofo)
Assassin	حشيشيّين أو حشّاشين
Atlas	أطلس (أي ناعم الملمس، وهو قماش)
Aubergine	الباذنجان (وهي كلمة فارسية، وبالإسبانية alberengena)
Average	عَوَار (أي خسارة، وبالإسبانية averia)
Azimuth	السُّمُوت (أي الطرق أو الاتجاهات)
Azoth	الزّاووق
Azure	لازوَرْدي (وهي فارسية) أو: أزرق
Baboon	ميمون
Balcony	بالاة (وبالفارسية bàlàkhànä)
Baldachino	بغداد (وبالإيطالية baldacco)
Banana	بَنان (أي إصبع)
Barberry	بربارس
Barbican	بالاة (وبالإسبانية barbacana)
Baroque	بُرْقَة (وبالبرتغالية barroca)
Barque, Barquentine, Brigantine	بَرْشَة أو بارجة (وبالمصرية القديمة vá-rá أي مركب الشمس وبالإسبانية barca)
Bedouin	بدويّين
Benzine, etc.	لُبان جاوي (أي اللادن من جاوة)

الإنكليزية	العربية
Berberine	بربارس
Bergamot	بجَرْمُدي (وهي تركية)
Bezoar	بادزهر (وهي فارسية؛ وبالإسبانية bezoar)
Bismuth	إثميد (وبالإسبانية bismuto)
Blouse	بَلْسِي (وبالمصرية القدية Pelusium؛ وباللاتينية Pelusia)
Bombasine	بنبا (وهي فارسية ومعناها قطن، وباللاتينية bombacium، وبالتركية Pembe)
Borax	بورَق (وبالفارسية buräh؛ وبالبرتغالية borax)
Borage	أبو راج (وبالفرنسية bourrache)
Buckram, Barchant	بَرْكان
Cabas	القَفَص
Cabaya	قَبَاء (وهي فارسية)
Cable	الحَبْل
Cadi, Cauzee	قاضي
Calibre	قالِب
Caliph	خليفة (وبالإسبانية Califa)
Camel	جَمَل (وباللاتينية Camelus)
Camelia	جَمَل (وبالألمانية Kamell)
Camelot	جَمَل (نوع من القماش)
Camphor	كافور (بالسنسكريتية Karpùra)
Candy	قَنْد، قَنْدي (عصير قصب ثخين)
Caper	كَبّار (باليونانية Kapparis، وبالإسبانية alcaparra)
Carafe	غَرّافة (بالإسبانية garrafa)
Carat	قِراط (باللاتينية Carratus، وبالبرتغالية quirate)
Caraway	كَرَويّة

الإنكليزية	العربية
Carmine	قِرْمَزي أو قِرْمِز (باللاتينية Carmesinus، وبالسنسكريتية Krmija)
Carob?	خَرّوبة (وهي آشورية)
Check	شاه (وهي فارسية بمعنى ملك، وتستخدم اسماً للعبة)
Checkmate	شاه مات (مات الملك)
Chemistry	كيمياء
Cheque	صكّ
Chess	شاه (وهي فارسية)
Chiffon	شِفّ (وبالفرنسية القديمة Chiffe)
Cid?	سيّد
Cinnabar	زِنْجَفْر (وهي فارسية، وباللاتينية Cinnàbaris)
Civet, Zibet	زَباد
Coffee	قهوة
Coffle	قافلة
Cotton	قطن
Coffer	قُفّة (باليونانية Kophinos)
Colcothar	قُلْقُتار (باليونانية Khalkanthè)
Cramoisy	قِرْمَزي أو قِرْمِز
Crimson	قِرْمَزي أو قِرْمِز
Cubeb	كَباب
Cumin	كَمّون؟ (وهي آشورية، وباليونانية Kuminos)
Cupola	قُبّة
Cypher	صِفر (أي خالٍ)
Dam, Dambrod	الشَّطْرَنْج التام (وبالإسبانية ajedrez atama)
Daman	دَمَن إسرائيل

الإنكليزية	العربية
Damascene, Damask	دِمشق (باللاتينية damascenus)
Damson	برقوق دمشق
Date	دَقَل - نوع سيىء من البلح - (باللاتينية dactylus، وبالإسبانية dàtil)
Demi-John	دَمَجان (وهي فارسية، وبالإيطالية damigiana)
Dhow	داوة
Divan	ديوان (وهي فارسية)
Dragoman	تَرْجُمان
Drug	دُورَوَاه؟
Druse	دُروز
Durra	دُرَّة
Elemi	اللاّمي (بالإسبانية elemi)
Elixir	الإكسير؟ (باليونانية xèron)
Fanfare	فقير
Fakir	فَرْفَرَة؟ (بالفرنسية fanfaron)
Fata Morgana	مَرْجان
Falucca	حَرّاقة أو فُلُك أو فُلوكة (بالبرتغالية falùa، وبالإسبانية haloque)
Fellah, Fellaheen	فلاّحين
Fondaco	فُندق (باليونانية Pandocheion)
Fret	فريدة، أو فرد
Frieze	إفريز؟ (باليونانية Phrygios، وبالإسبانية Frisco)
Gabelle	قَبالَة (باللاتينية Caballa)
Gala	خِلْعَة
Galingale	خَلَنْجان (باللاتينية galanga)
Gallont	خِلْعة (بالإسبانية galante أي أنيق الثياب)

العربية	الإنكليزية
غَدامَسي (بالإسبانية guadamaci، وهو نوع من الجلود)	Gamash?
قَزّ (بالإسبانية gasa أي الحرير)	Gaze, Gauze
غزال	Gazelle
كَنْز (باللاتينية gaza، وبالفارسية gànj، وبالإيطالية gazzetta وهي عملة)	Gazette
غَزَل	Ghazal
كافر (وبالفارسية gàbr؟)	Giaour, Guebre
جبل طارق	Gibraltar
زَنجبيل (وباللاتينية giniber أو Zingiber)	Ginger
زرافة	Giraffe
قيثار (باليونانية Kithara، وبالإسبانية guitarra)	Guitar (Cither, Citole, Gittern, Zither)
جبس (باليونانية gypsos)	Gypsum
حكيم	Hakeem, Hakim
حشيش	Hashish
الزّهر (بالإسبانية azar)؟	Hazard
حِنّاء	Henna
حُقّة	Hooka
هَوْدج	Howda
إرادة	Jrade
جَرّة	Jar
ياسمين (وهي فارسية)	Jasmine
يربوع	Jerboa
جُبّة	Jump, Jupe

العربية	الإنكليزية
جُبَّة	Jumper
جُلاب (وهو شراب، وبالفارسية gul-àb)	Julep
قَلي	Kalium
قَوّاس	Kavass, Kawass
قِرْمِز	Kermes
قِسمة	Kismet
كُحل	Kohl
لاك (وهي فارسية، وبالتركية Làqa)	Lac, Lacquer?
لادَن	Ladanum?
الأَندول	Landau
لازَوَرْدي (وهي فارسية، وباللاتينية lazulum)	Lapis-Lazuli
لِيلاك (وهي فارسية)	Lilac
ليمون (وهي فارسية)	Lemon
لوفة	Loofah
العود	Lute
مخازن	Magazine
مملوك	Mameluke, etc.
منقوش	Mancus
مُرابط	Marabou
مُرابط	Marabout
مَرْقَشيتاة	Marcasite
مراكش	Maroquin
مَوْثَبان (وبالفارسية مَرْزُبان)	Marzipan, Marchpane
مسخرة (وبالإسبانية máscara)	Mask, Masque, Masquerade

الإنكليزية	العربية
Mat, Matt	مات
Matachin	متوجّهين (لابسين الأقنعة)؟
Mate	مات
Mattress	مطرح
Minaret	منارة
Mocha	مُخَة (اسم مدينة)
Mohair	مُخَيَّر
Moiré	مُخَيَّر
Monsoon	مَوْسم (بالبرتغالية monçào)
Morocco	مراكش
Mosque	مسجد (بالفرنسية القديمة mosquete، وبالإسبانية mezquita)
Mulatto?	مُوَلَّد
Mummy	مومياء (وبالفارسية mùm أي شمع)
Muscat, Muscadine, Muscatel	مُسْك أو مَسْقاط
Musk	مُسْك (وبالفارسية mushk، وبالفرنسية musc)
Musket	مُسْتَق
Muslin	المُوصِل
Myrrh	مُرّ
Nabob	نُوّاب (جمع نائب)
Nacre	نَقّارة (وبالفرنسية القديمة nacaire)
Nadir	نَظْر (وبالإسبانية nadir)
Naker	نقّارة (فارسية؟)
Natron	نَطرون (وبالعبرية nèther)
Nitre	نطرون (وباليونانية nitron)

الإنكليزية	العربية
Noria	ناعورة
Ogive	عَوْج (وباللاتينية augivus)
Orange	نارَنْج (وهي فارسية)
Ottoman	عثمان (اسم علم)
Percival	فارس الفال
Popinjay	الببغاء؟ (بالفرنسية القديمة Papagai)
Race	رأس (بالإسبانية raza)
Racket	راحة (بالفرنسية raquette)
Razzia	غَزيَّة أو غازية
Realgar	رَهْج الغار (أي غبار الكهف)
Ream	رزْمة (بالفرنسية القديمة rayme)
Rebec	رَباب (بالإيطالية ribeba أو ribeca)
Rice	الرّز (بالفرنسية القديمة ris)
Risk	رزْق (بالإسبانية risco أو arrisco)
Rob	رُبّ (وهو عصير فاكهة بالعسل)
Roc	رُخّ؟
Rocket	راحة
Rook	رخّ
Saccharin	سكر (وباللاتينية Saccharum)
Sacre, Saker	صقر
Safari	سافر
Saffron	زعفران؟ (بالفرنسية Sapran)
Salep, Salop	ثعلب
Sambook	سَنْبوق
Sandalwood	صندل
Sapphire	صَفير

العربية	الإنكليزية
شرقي الحشاشين	Saracen
زيتوني (بالإيطالية Setino)	Satin
سنا	Senna
سباه (وهي فارسية بمعنى الجيش، وبالتركية Sipàhî)	Sepoy
لاك	Shellac
شربات (بالتركية Sherbet)	Sherbet
شُرْب	Shrub
سُمّاق	S (h) umach
شَرْق (بالإيطالية Scirocco)	Sirocco
صُفَّة	Sofa
شَربة (بالتركية Shorbet)	Sorbet
سِباه (وهي فارسية)	Spahi
إسْبانَخ (وبالفارسية aspaniakh، وبالفرنسية القديمة espinage)	Spinach
سُكّر	Sugar
سلطان	Sultan
زوج السلطان	Sultana
شُرْب (بالفرنسية القديمة Sirop)	Syrup
عَتّابيّة (ناحية من بغداد)	Tabby
طبل؟ (بالفارسية tabūràk)	Tabor, Taborin, Tabret
طَلْق؟	Talc
طِلَسْم (باليونانية Telesma)	Talisman
تمر هندي	Tamarind
تمر (باللاتينية Tamariscus)	Tamarisk

الإنكليزية	العربية
Tambour, Tambourine	طبل
Tare	طَرْحَة
Tariff	تعريف (وبالإيطالية tariffa)
Tarragon	طَرْخون (وهي فارسية، وباللاتينية tarchon)
Tass, Tassie	طاس (وبالفارسية طشت، وبالفرنسية tasse)
Teak	ساج (وبالبرتغالية Teca)
Toque	طاقية (وبالإيطالية Tocca)
Troubadour	طَرّاب (أي المغنّي)؟
Turbith, Turpeth	تُرْباذ
Tutty	تُوتياء
Vizier	وزير
Wad	باطن (بالفرنسية ouate)
Zedoary	زَدْوار
Zenith	سمت (بالفرنسية القديمة cenit)
Zero	صِفر (بالإيطالية Zero أو Zefro)
Ziacon	أزرق
Zouaue	زَواوَة (اسم قبيلة)

المراجع

١ - مونتجومري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٣.

٢ - جاك ريسلر: الحضارة العربية. تعريب الدكتور خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٩٣.

٣ - بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعارف ١٩٨٣.

٤ - سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ود. عبدالمجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠.

٥ - شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، عالم المعرفة، الكويت، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي.

٦ - ماكس مايرهوف: تراث الإسلام.

٧ - ويل ديورانت: قصة الحضارة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ١٩٥٥.

٨ - جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٤.

٩ - سيديو: تاريخ العرب العام. عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٩.

١٠ - جون درابر: تطور أوروبا الفكري.

١١ - ليكلير: تاريخ الطب عند العرب.

١٢ - ستانو ودكب: المسلمون في تاريخ الحضارة، الدار السعودية، جدة ١٩٨٢.

١٣ - د. زيغرد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، منشورات دار الجيل، بيروت ١٩٩٣.

١٤ ـ فيليب حتّي: العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠.
١٥ ـ حيدر بامات: إسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية، ترجمة د. ماهر عبدالقادر، دار النهضة العربية، بيروت.
١٦ ـ د. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١.
١٧ ـ د. أحمد محمد عوف: صنّاع الحضارة العلمية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.
١٨ ـ د. أحمد سعيد الدمرداش: تاريخ العلوم عند العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧.
١٩ ـ د. حامد زيان غانم: تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها على أوروبا، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٧.
٢٠ ـ أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، دمشق ١٩٨١.
٢١ ـ د. أحمد شوكت الشطي: موجز تاريخ الطب عند العرب، جامعة دمشق ١٩٥٩.
٢٢ ـ د. عبدالحليم منتصر: العلوم عند العرب، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة.
٢٣ ـ أسامة بن منقذ: كتاب «الاعتبار» تحقيق د. قاسم السامرائي، دار الأصالة، الرياض، ١٩٨٧.
٢٤ ـ عمر رضا كحالة: العلوم العملية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٢.
٢٥ ـ د. عبدالحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥.
٢٦ ـ د. التجاني الماحي: مقدمة في تاريخ الطب العربي، الخرطوم ١٩٥٩.
٢٧ ـ د. علي عبدالله الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣.
٢٨ ـ الزهراوي: التصريف لمن عجز عن التأليف. المقالة الثلاثون. تحقيق د. عبدالعزيز الناصر ود. علي التويجري، الرياض ١٩٩٣.
٢٩ ـ أسامة عانوتي: كنوز من الفكر العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨١.

٣٠ ـ د. محمد شامة: الإسلام في الفكر الأوروبي، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٠.
٣١ ـ د. محمد علي البار: المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب، دار المنارة، جدة ١٩٩٥.
٣٢ ـ د. عز الدين فراج: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، دار الفكر العربي، مدينة نصر.
٣٣ ـ د. عبدالغني عبود: الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨١.
٣٤ ـ د. بول غليونجي: ابن النفيس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
٣٥ ـ محمد ضاهر وتر: مكانة المرأة في الشؤون الإدارية والبطولات القتالية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩.
٣٦ ـ د. عبدالله عبدالرزاق السعيد: المستشفيات الإسلامية، دار الضياء، عمان ١٩٨٧.
٣٧ ـ د. محمود الحاج قاسم محمد: الطب عند العرب والمسلمين، الدار السعودية، جدة ١٩٨٧.
٣٨ ـ د. حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٥.
٣٩ ـ د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٨٥.
٤٠ ـ حنيفة الخطيب: الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٨.
٤١ ـ د. أحمد شوكت الشطي: العرب والطب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٠.
٤٢ ـ حسين عبدالله باسلامة: الإسلام في نظر أعلام الغرب، تهامة، جدة ١٩٨٣.
٤٣ ـ هشام جعيط: أوروبا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٠.
٤٤ ـ د. أحمد شوكت الشطي: تذكرة في تاريخ الطب، جامعة دمشق ١٩٦٠.
٤٥ ـ حسني أحمد السيد حماد: الحضارة العربية: نشأتها، تطورها، آثارها. وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
٤٦ ـ جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٠.
٤٧ ـ د. عبدالرزاق الكيلاني: الحقائق الطبية في الإسلام، دار القلم، دمشق ١٩٩٦.

٤٨ ـ عمر بن محمود عبدالله: الطب الوقائي في الإسلام، دار الثقافة، الدوحة ١٩٩٠.
٤٩ ـ د. محمد علي البار: هل هناك طب نبوي؟ الدار السعودية للنشر، جدة ١٩٨٨.
٥٠ ـ عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٠.
٥١ ـ قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي، دار الشروق، بيروت.
٥٢ ـ عدد من المؤلفين الأمريكيين: عبقرية الحضارة العربية، منبع النهضة الأوروبية، ترجمة عبدالكريم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢.
٥٣ ـ محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤.
٥٤ ـ د. أمين سيد خيرالله: الطب العربي، الجامعة الأمريكية ١٩٤٦، ونقله للعربية د. مصطفى أبو عز الدين.
٥٥ ـ عمر رضا كحالة: العلوم العلمية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢.
٥٦ ـ د. ماهر عبدالقادر محمد: التراث والحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت.
٥٧ ـ جومار: وصف مدينة القاهرة، نقله عن الفرنسية أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.
٥٨ ـ د. جوزيف كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة. دار طلاس، دمشق ١٩٩٥.
٥٩ ـ المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة: مناهج المستشرقين. الرياض ١٩٨٥.
٦٠ ـ د. محمد علي البار: علم التشريح عند المسلمين. الدار السعودية، جدة ١٩٨٩.
٦١ ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. دار مكتبة الحياة، بيروت.
٦٢ ـ د. محمد نزار الدقر: روائع الطب الإسلامي. دار المعاجم، دمشق ١٩٩٤.
٦٣ ـ د. حسان شمسي باشا: قبسات من الطب النبوي والأدلة العلمية الحديثة، مكتبة السوادي، جدة.
٦٤ ـ د. عبدالحميد القضاة: تفوق الطب الوقائي في الإسلام. جمعية المركز الإسلامي الخيرية، عمان ١٩٨٧.
٦٥ ـ د. كمال السامرائي: الأمراض النسوية في التاريخ القديم.

المراجع الإنجليزية:

66- The Genius of Arab civilization: Source of Renaissance, 1982.

67- Dr Mirza Mr, Siddiqi MI: Muslim contribution to science, Kazi Publications, Lahore, 1986.

68- Meyerhof: The Legacy of Islam.

69- Draper: The Intel. Develop of Europe.

70- Garra de Vaux: The Legacy of Islam.

71- Leclerc: Historie de la Medicine Arabe.

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

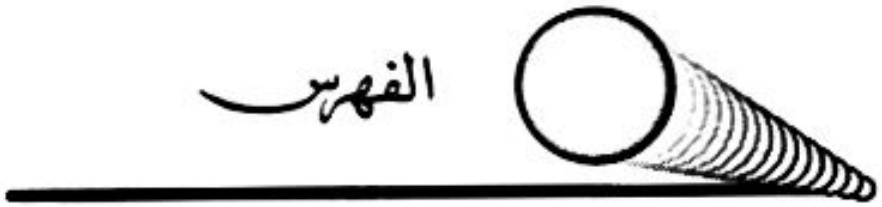

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة	٧
الفصل الأول: الطب في أوروبا	١٣
المستشفيات في أوروبا	١٧
مستشفى «أوتيل ديو»	١٨
الفرنجة يتداوون عند العرب	٢١
قصيدة تشوسر الشهيرة	٢٣
الفصل الثاني: المستشفيات الإسلامية	٢٥
١ ـ المشافي الثابتة	٢٥
٢ ـ المشافي المتنقلة	٢٦
مستشفيات مثالية	٢٦
المستشفيات كالقصور	٢٨
من أين تأتي أموال المستشفيات؟ ومَنْ يديرها؟	٢٩
كيف يُختار رئيس الأطباء؟	٣٠
المستشفيات مدارس للطب	٣٠
سجلات المرضى	٣١
تشاور الأطباء	٣١
أشهر المستشفيات الإسلامية	٣٢
المستشفيات الإسلامية في نظر المستشرقين	٣٢

الموضوع	الصفحة
صور من المستشفيات	٣٦
المؤتمرات الطبية	٣٧
الفصل الثالث: علاجنا وعلاجهم	٣٩
كيف عاملوا المجذومين؟	٣٩
كيف واجهوا الطاعون؟	٤٠
معالجة المصابين بالأمراض العقلية الذين لا رجاء في شفائهم	٤٢
علاج الميؤوس منهم	٤٤
المعالجة بالإيحاء	٤٥
الفصل الرابع: مسؤولية الأطباء عندنا وعندهم	٤٨
المسؤولية الطبية عند الأوروبيين	٤٨
نظام الحسبة في الإسلام	٤٩
المسؤولية الطبية في الإسلام	٥٠
الفصل الخامس: طبُّنا .. وطبُّهم	٥٢
الطب الباطني (الداخلي)	٥٣
علم التشريح عند المسلمين	٥٦
الجراحة	٥٩
علم التخدير	٦٢
طب العيون	٦٤
علم الصيدلة	٦٦
الصيدليات الإسلامية	٦٧
الفصل السادس: بوابات الشرق على الغرب	٦٩
١ ـ الحروب الصليبية	٦٩
٢ ـ صقلية وإيطاليا	٧٠
مَن هو قسطنطين الإفريقي؟	٧١
الفصل السابع: العلم والدين	٨٠
الحضارة الإسلامية مادة وروح	٨١
همجية أوروبا	٨٤

الموضوع	الصفحة

تكريم العلم والعلماء عند المسلمين ٨٦

الفصل الثامن: الطب الوقائي في الإسلام ٨٩

النظافة ٩٠

أوروبا تقلّد المسلمين في إقامة الحمّامات ٩٢

نظافة الفم ٩٥

تعاليم الإسلام وقاية من الأمراض ٩٧

الفصل التاسع: الآسيات والطبيبات المسلمات ١٠٠

دور الآسيات المسلمات ١٠٢

المرأة في نظر الأوروبيين ١٠٧

تذييل قائمة بالكلمات الإنجليزية المشتقة من أصل عربي ١٠٩

المراجع ١٢٣

المراجع الإنجليزية ١٢٧

الفهارس ١٢٩

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠